التعازي في التراث العربي: دراسة في البنية والدلالة

*خلود إبراهيم العموش**

ملخص

يدرس هذا البحث لغة الخطاب في "التعازي" في التراث العربي. ويستعين في هذه الدراسة بمنجزات مدرسة تحليل الخطاب.

والتعازي هي ما يقال لأهل الميت بغرض تسليتهم وإعانتهم على الصبر. ولرسالة التعازي في التراث العربي ثلاثة أنماط أولها: ما يقوله الآخر للفاقد، وثانيها: ما يقوله الفاقد لنفسه أو لغيره، وثالثها: ما يقوله الفاقد للفقيد بعد موته أو بعد دفنه. وهذا البحث متخصص بالنمط الأول باعتباره الشكل الطبيعي للتعزية.

وقد درس البحث السمات اللغوية العامة في رسالة التعازي. وحلّل رسالة تعزية طويلة – نسبياً- لتجلية هذه السمات. ثم وقف على التشكيلات اللغوية للصبر في رسائل التعازي باعتباره العمود الفقري لهذه الرسالة، ثم وقف على التقنيات اللغوية المستخدمة في تهوين المصيبة.

إن دراسة لغة التعازي تقفنا على الطرائق اللغوية التي يسلكها العرب في التعاطف الإنساني في مسألة وجودية وذات اثر كبير في الحياة هي الموت. كما أنه يمكننا في مراحل تالية من الدرس من استخراج الأنساق الاجتماعية والثقافية التي صدرت عنها هذه التعازي.

الكلمات الدالة: لغة الخطاب، التعازي، البنية، الدلالة.

المقدمـــة

يعد فن الرثاء من الفنون الشعرية المهمة في الشعر العربي، وعده بعضهم صورة من صور المديح، بفارق أن أسلوب المديح يكون للمخاطب الحاضر، وأسلوب الرثاء يكون للغائب. وكتب في الرثاء دراساتٌ كثيرة، تاريخية: الرثاء في العصر الجاهلي، في العصر الإسلامي،... وموضوعية: رثاء النفس، رثاء الأخ...[(1)].

وكانت التعازي متّصلة بالرثاء مرتبطة به، وكانت شعراً ونثراً، وغلب عليها النثر. ولم يلتفت إليها أحد – فيما أعلم – وقد توافرت مادة معقولة في "التعزية"، وهي مادة جديرة بالدرس. وصلنا منها كتابان: الأول للمدائني (228هـ)[(2)]، والثاني للمبرد (286هـ)[(3)]. كما توجد في التعازي فصول متفرقة في بعض كتب الأدب العامة، عند ابن قتيبة (ت276هـ)[(4)]، وابن عبد ربه (328هـ)[(5)]، والصاحب بن عباد (ت 385هـ)[(6)]، والصابي(ت 448هـ)[(7)]، وابن حمدون (ت608هـ)[(8)]، والنويري (ت733هـ)[(9)]. وستعتمد هذه الدراسة على كتابي: المدائني، والمبرد بشكل رئيس، وعلى هذه الفصول المتفرقة التي ذكرناها في كتب الأدب العامة.

وسيدرس هذا البحث لغة الخطاب في "التعازي"، وسيحاول الكشف عن جدلية البنية والدلالة في هذا الخطاب. كما سيحاول الكشف عن جوانب التأثير في الرسالة اللغوية التي يحملها خطاب التعازي، والكشف عن تقنيات النص في توليدها، من خلال التركيز على الغرض المراد من هذا الخطاب. ولعلّ معالجة لغة الخطاب في "التعازي" تكشف عن قيم إنسانية نبيلة في تبادل المشاعر والتعاطف الإنساني، والمواساة بين الناس عند حلول المصائب. كما أن لها أهمية شديدة في الكشف عن الطرائق اللغوية للعرب في التواصل الإنساني، في موضوع مهم يمس حياتهم بصورة مباشرة وهو الابتلاء بالمصيبة.

ويستعين البحث – بشكل رئيس – بمنجزات منظور تحليل الخطاب (Discourse Analysis)، بما يوفّره من أطر ومقولات تقوم على فهم الخطابات عامة، وتحليلها وتأويلها، من خلال وضعها في سياقها التواصلي: زماناً، ومكاناً، ومشاركين، ومقاماً. وبذا فهو يركّز على الوظيفة التفاعلية للّغة، التي تبعث الحياة في تحليل النصوص، وتعيد للدرس

* الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن. تاريخ استلام البحث 2009/8/17، وتاريخ قبوله 2010/3/17.

© 2010 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

اللّغوي بعضاً من أهم وظائفه. وتعنى مدرسة تحليل الخطاب "بكيفية كون الاتّصال شيئاً أوسع من مجرد القول، ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبةً وناجحةً إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية"[10].

إنّنا في تحليلنا لرسالة التعازي نسعى إلى استخراج البنية الدلالية فيها، وهي – كما يصفها شولز – "شيء ينجزه القارئ، عبر عملية فرز لدلالات الإيحاء الواردة في كلمات النص وعباراته بحثاً عن النماذج؛ فالنص نفسه يشجعنا على أن نؤلف نموذجاً نحوياً. ثم عبر المشاركة الفعالة في توضيح نظامه النحوي والدلالي والتداولي، حتّى نجد مفتاح السياق النصي له"[11].

إن البحث عن البنية الدلالية مبني على فكرة أن الجمل لا تتركّب بمحض المصادفة، فهناك أسباب وجيهة لتركّبها وفق كيفية بعينها، وهذه الأسباب ترجع إلى :الموضوع، والأسلوب، والسلوك الاجتماعي، والتراث، والإطار الخطابي، وهكذا. "وكلّها عوامل خارجية عن نطاق اللغة، ولكنّها أساسية بالنسبة للتنظيم البنائي للثقافة التي تستخدم اللّغة، وكقاعدة عامة، نستطيع أن نقول إن الخصائص اللّغوية المتّصلة بالشكل لكلّ نص أو خطاب يحددها الدور الذي يؤديه هذا النص في مجموعة التقاليد الموصلة والتي تحدد الثقافة"[12]. وبذا فإن تحليل الأداء اللّغوي لا يتطلّب تصنيف أنماط الجمل التي تتردد في النصوص حسب، بل "تتطلّب نموذجاً تفسيرياً قوياً للثقافة، أو لأجزاء متّصلة بالثقافة، والتي تجعل هذه النصوص تتركّب على صورتها"[13].

إن اختيارنا لهذه النّصوص الحية، التي تعالج موضوعاً حيوياً، هو إصرار على أن الغاية من النّظام اللّغوي تكمن داخل "التّعبير الوجداني في الألفاظ، وإثبات إرادة المتكلم وذاته، وما لذلك من أثر في المخاطب، ومنهجه دراسة الوسائل التّعبيرية في المجال اللّغوي الذي تلتقي فيه اللّغة بالحياة"[14].

وتعلي رجاء عيد من أهمية هذا الضرب من الدراسة، وتدعو إلى أن يجعل البحث اللّغوي درسه متوجهاً إلى هذا المجال ؛ أي الّلغة في إطارها التواصلي، ثم استخلاص منهج موضوعي يقوم على تحليل البنية اللّغوية بدلاً من البحث التقليدي حول تاريخ الّلغة وما يتّصل به. ومن ثم "فإن البحث اللّغوي يكون في نطاق الّلغة التي تشكّل الخصائص العامة لمجتمع لغوي معين، وتكون الّلغة فيه وسيلة لاستمرارية الحياة الاجتماعية في معناها العام، وما تتطلّبه تلك الحياة من صلات لغوية بين أفراد هذا المجتمع، وعلى الباحث الّلغوي أن يقوم بوصف تلك الّلغة، وكيف تتحرك وسط مجتمع ما"[15].

فاللّغة – وفقاً لبييرجيرو – لها وظيفتان: الأولى "أنّها تعطي الأشياء التي نتكلّم عنها دلالاتها. والثانية أنّها تعبر عن موقف المتكلم إزاء هذه الأشياء"[16]. وبذا فإن البحث في لغة الخطاب في رسالة التعازي لا يمكن أن يتحقّق عبر البحث في الكلمة: صوتاً، وشكلاً، ودلالةً فقط. كما لا يمكن أن يتحقّق عبر البحث في الجملة بتصنيفها إلى: إخبارية، وطلبية، أو فعلية واسمية حسب، وإنّما يحتاج "رؤية شمولية بها تدرس أجزاء الخطاب كلماتٍ وجملاً، وبها تحيل هذه الأجزاء وتخرجها من نظامها الخاص إلى نظام الخطاب"[17].

مفهوم التّعازي

"التعازي" من الجذر "عزا". و"العزاء: الصبر عن كل ما فقدت، وقيل: حُسْنُه. ويقال: إنّه لَعزي صبور، إذا كان حسن العزاء على المصائب. وعزاه تعزية، على الحذف والعوض، فتعزى. وتقول: عزيت فلاناً أعزيه تعزية: أي أسيته، وأمرته بالعزاء فتعزى تعزياً؛ أي تصبر تصبراً، وتعازى القوم عزى بعضهم بعضاً"[18]."وتعزيتك الرجل: تسليتك إياه. والعزاء هو السلو وحسن الصبر على المصائب"[19].

و"التّعازي" هي ما يقال لأهل المصيبة، أو ما يتمثّل به من قول حسن أو آيات بينات، أو أقوال للرسول (ﷺ) أو أشعار. وغايتها تهدئة الخواطر، وتذكير أهل المصاب بالثواب على حسن اصطبارهم. يقول النويري: "إنّما جُعِلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها، وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها، وتأسية لمن سبق إلى هذا المصرع ..."[20].

ومع أن المصائب في حياة الإنسان تتعدد أشكالها تعدد الأشياء التي يهتم لها ويحرص عليها، إلاّ أن الموت كان المصيبة الكبرى والأكثر تأثيراً في حياته؛ ولذلك كانت "التعازي" في التراث العربي مختصة بالموت دون غيره من المصائب التي تعرض للإنسان[*]. قال النويري: "فالموت هو المصيبة التي لا تدفع، والرزية التي لا ترد بكثرة الجموع... وقد قالت الحكماء: "أعظم المصائب كلّها انقطاع الرجاء"[21].

وتأخذ رسالة التعازي ثلاثة أشكال باعتبار طرفي التخاطب: الأول: ويصدر من الآخر إلى المصاب، وهذا

(*) نقل بعض الجامعين مراثي وتعازي في بعض المخلوقات أو الأشياء، وجعلها تحت عنوان: "نوادر التعازي والتراثي" من مثل: تعازٍ في ببغاء، أو هرة، أو شاة، أو ثور، أو سراج. أو في بعض الحوادث أو العزل من الوظيفة العامة، أو المرض أو الفقر، أو فقد البصر. انظر مثلاً: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج4، ص287.

الآخر قد يكون صديقاً، أو قريباً... وهذا هو النمط الأكثر شيوعاً.

والثاني: ويصدر من المصاب إلى نفسه غالباً، أو إلى غيره، مذكّراً بالصبر والرضى بقضاء الله، وقد يذكر ألم الفقد، وقد يتحدث عن مناقب الفقيد؛ فيكون المصاب هو المرسل. وقد يكون هو المرسل والمتلقّي معاً. وهذا النمط أقل شيوعاً من سابقه. ومن أمثلته: ما قاله عمر بن عبدالعزيز عند وفاة ابنه عبدالملك: "الحمد لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على خلقه، ثم سوى فيه بينهم، فقال عز وجل: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾"[22]. وإذا كان الخطاب في هذا النمط موجهاً لغير النفس أشبه سمات النمط الأول. وإذا كان الخطاب موجهاً للنفس اتّخذ طابعاً وجدانياً، واتّسم بالرقّة.

والثالث: ما يصدر من المصاب تجاه الفقيد/ المتوفّى؛ فهو يخاطبه قبل دفنه أو بعده. وهذا النمط موجه للنفس عبر خطاب الفقيد. وهو خطاب جواني عبر ظاهر براني، ويمتاز بالرقّة البالغة، وفيه صدق وحزن، وكثيراً ما يتناول الحديث عن الفقد، والرغبة في التواصل، وقد يتّخذ شكل الدعاء، وهو أقل شيوعاً من سابقيْه. ومن أمثلته: ما تمثّله علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عند قبر فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد دفنها قال[23]:

وإن افتقادي واحداً بعد واحد ... دليلٌ على أن لا يدوم خليلُ

وسوف نقتصر في دراستنا على النمط الأول لصلته المباشرة بخطاب التعزية في صورته الطبيعية التي تفترض وجود طرفين: مُعزٍ ومُعزىً هو غيره. ولأن حجم البحث سيتضخّم إذا تناولنا الأنماط الثلاثة.

بنية رسالة التعزية

يقدم الآخرون التعازي بهدف رفع معنويات المصاب وتهدئة خاطره، وتمتاز رسالة التعزية، غالباً، بأنّها قصيرة، وبعضها الآخر طويل. كما تمتاز بلغتها القوية التي تبتغي أن تحدث أثراً عميقاً في نفس المتلقّي، يعمل على إعادته إلى حالة من السكينة والتوازن النفسي بعد أن عصفت به المصيبة؛ ولذا تكثر فيها عبارات الحكمة. وقد تأخذ عباراتها سمت الشدة أحياناً. كما يكثر فيها تلوين الأساليب لتحدث الأثر المطلوب في نفس المتلقّي.

وتتّسم، غالباً بغياب اسم المرسل؛ فنجد في مطلع رسالة التعازي عبارات مثل: "سمعوا قائلاً ولم يروا أحداً"[24]، أو "فعزاه بعض العرب"[25]، وهذا يشكّل ظاهرة في هذا الضرب من الرسائل اللّغوية. ولعلّ مقصد ناقل النص التركيز على الرسالة نفسها وعلى المتلقّي؛ فذلك أكثر تأثيراً في موضوع التعازي.

وموضوعات "التعازي" مستمدة من الغرض الرئيس منها، ألا وهو العزاء والتسلية؛ ومن أبرز هذه الموضوعات الدعوة إلى الصبر، والاحتساب، والتأسي، وذكر فضائل المتوفّى، والدعاء للمصاب بالأجر العظيم وحسن الصبر، وللمتوفّى بالرحمة، والحديث عن قضاء الله وقدره، وسنّة الله الماضية على الخلائق جميعاً في الحياة والموت، وتهوين المصيبة، والتذكير بالله الباقي.

وتشكّل فاتحة أي رسالة لغوية جزءاً مهماً فيها؛ فهذا المفتتح "أول شيء يدخل الأذن، وأول معنى يصل إلى القلب، وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل"[26]. ويكون هدف هذه الفاتحة إحداث الأثر المناسب في المتلقّي لتحقيق غرض الرسالة. وفي التعازي يحاول المرسل أن يقنع المتلقّي بأنّه يملك أن يقدم له شيئاً (فكرة، معنى، قصة، ...) يحمله على الصبر، أو يعينه عليه. وهي مهمةٌ كبيرةٌ، تحتاج إلى إظهار قوة المرسل النفسية، وأن يظهر هذا المرسل للمتلقّي أنّه يتقدم عليه خطوة أو خطوات في: رباطة الجأش، والوعي، والإيمان بما يقول. ولأجل هذا كلّه نجد أن كثيراً من رسائل التعازي تأخذ شكل الخطاب المباشر، وتتّخذ سمتاً قوياً، وكثير منها يبدأ بفعل أمر مثل: اعلم، اطلب، تعز، اعتبر... كما تكثر أفعال الأمر في ثنايا الرسالة أيضاً. ومنه أنّه لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه الحجاج، فقيل له: "اتّقِ الله واسترجع"[27]. وقد يستعيض المرسل عن فعل الأمر المباشر باسم الفعل، ومنه ما عزى به رجلٌ رجلاً قال: "عليك بتقوى الله والصبر"[28]. وقد يبدأ بالنهي، وهو صنو الأمر لكنّه طلب بالكف، ومنه قول معز لأبي عقبة بن غنم الفهري حين مات ابنه: "لا تجزع عليه؛ فقد قتل شهيداً..."[29].

وصيغتا الأمر والنهي تقتضيان استحضار المتلقّي مصغياً منتبهاً بحواسه جميعاً إلى مضمون رسالة العزاء، وهما أداتا تنبيه قويتان للإصغاء. والأمر والنهي يخرجان في رسائل التعازي إلى غرض النصح والإرشاد، الذي يكون المتلقّي في حاجة ماسةٍ إليه، وهما كفيلان بإشعار المتلقّي بقوة المرسل وثقته بنفسه، وأنّه جدير بالاستماع إليه، والاستجابة له، مع استحضارنا حالة الضعف التي يمر بها المتلقّي، وحاجته إلى من يشد من أزره.

وقد تبدأ هذه الرسائل اللّغوية بالدعاء للمصاب أو للميت، أو لهما معاً، ومنه ما عزى به رجل ابن عمر قال: "أعظم الله أجرك"[30]. وقول بعضهم معزياً: "عظّم الله أجركم وألهمكم الصبر"[31]. ومنه أيضاً ما نقله المبرد عن عامر ابن الأسود قال: "استشهد لمولى لبني نوفل بنون، فعزاه رجلٌ فقال: "آجرك الله في الباقين، ومتّعك بالفانين" فقال له رجل: لعلّك

غلطات، فقال: لا، إن الله يقول: ﴿**ما عِندكُم ينفَد وما عِند اللهِ باق**﴾[32]. وتبدو صيغة الدعاء في الرسالة كأنّها لون من التلاعب اللّغوي، وليست كذلك، بل إن فهم الرجل للآية هو ما عكسته أبنية هذا الخطاب؛ فهو يفهم أن من استشهد هو الباقي، وللمصاب الصابر أجره، ولذا قال: "متّعك بالفانين"؛ أي متّعك الله بأجر صبرك على فقدهم. وهو يفهم أن بقاء من بقي من بنيه يوقف أجره فيهم؛ ولذا فهو يدعو له قائلاً: "آجرك الله في الباقين". أي يدعو له بأن يستشهد بقية أبنائه فيأخذ أجرهم؛ فهذا الفهم هو ما حمله على ما قال، وبدا فيه خارجاً عن المألوف، حتّى قال له بعض من استمع إليه: "لعلّك غلطت"؛ فالمألوف هو الدعاء بالأجر وتعظيمه لمن فقد أحداً من أحبته.

وصيغة الدعاء في هذا المقام غالباً ما تكون بأحد هذين الفعلين: "عظم" و"أعظم". وكلاهما فعلٌ مزيد؛ الأول بالتضعيف، بهدف تقوية طلب الأجر في الدعاء وتعظيمه. والثاني مزيد بالهمزة للتعدية إلى الأجر والمصاب معاً. والدعاء في فاتحة هذه الرسائل اللّغوية بلسم لجروح المصاب النفسية، ومشاطرة وجدانية له في مصابه، وتذكير بما أعده الله من أجر عظيم للصابرين. فيعمل هذا الإحساس والأمل بأجر الله ومثوبته معادلاً موضوعياً للحزن في نفسه، كما أنّه يعكس جانباً من جوانب العرف الاجتماعي والمعتقدات الدينية في المجتمعات المسلمة، وهي مما تهتّم به اللّسانيات الاجتماعية عادة في تحليل الخطاب، فعبارة مثل: "عظّم الله أجركم" تنبئ عن الهوية الدينية للمرسل والمتلقّي معاً. فهذه الألفاظ مستقاة من السنّة النبوية الشريفة.

وقد تكون فاتحة رسالة التعزية جملة خبرية مؤكّدة، ومنه أنّه عزى رجل رجلاً فقال: "إن الماضي قبلك الباقي لك..."[33] ويظهر التوكيد ثقة المرسل بما يقوله، ويقتدر بالتالي على نقل هذه الشحنة من الثقة إلى المتلقّي، وللتوكيد وظيفة أخرى، هي إعادة المصاب إلى حالة الوعي واستقامة اليقين؛ فالمصائب قد تؤثّر سلباً في هذا الجانب. ويقع التوكيد على ما يعتقد المرسل أنّها الحقائق التي تحكم الوجود، وتتّصل بقدر الله في الحياة والموت، وما ينبغي للإنسان أن يكون عليه إزاء ذلك.

وقد تبدأ رسالة التعزية بالشرط، لكنّه لا يحمل المعنى الحقيقي للشرط؛ إذ يقوم على ضرب من التحدي العقلي للمتلقّي، يكون بينه وبين نفسه. وهدفه الإعانة على حسن اختيار الطريقة التي سيواجه بها المصيبة. ويجمع هذه الفواتح جميعاً إصرار المرسل على إظهار الحقائق بصورة قوية، تعمل على إخراج المُعزى من حالة الانكفاء الداخلي في دائرة الحزن إلى حالة: الوعي، والتوازن، واليقين، والرضى بقدر الله. وسنحلّل فيما يلي رسالة تعزية طويلة نسبياً، نمثّل بها لكلّ ما سبق من خصائص.

أورد المدائني أنّه مات أخٌ لبعض ملوك اليمن، النعمان أو غيره، فعزاه بعض العرب فقال: "اعلم أن الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولابد مما هو كائن، وقد جاء ما لا يرد، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات. وقد أقام معك ما سيذهب عنك، وستتركه. فما الجزع مما لابد منه؟! وما الطمع فيما لا يرجى؟ وما الحيلة فيما سينقل عنك، أو تنقل عنه؟ وقد مضت لنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصله؟ فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر، وإنّما أهل هذه الدنيا سفر لا يحلّون الركاب إلاّ في غيرها، فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند الغِير، فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع، فإن رأيت الجزع رد أحداً منهم إلى ثقةٍ من درْكِ الطلب فما أولاك به. واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخَلَف منها. فأفق، والمرجع قريب. واعلم أنّما ابتلاك المنعم وأخذ منك المعطي، وما ترك أكثر. فإن أُنسيتَ الصبر فلا تُغْفِل الشكر، وكلا فلا تدع. واحذر من الغفلة استلاب النعم، وطول الندامة، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظم المصيبة غداً. واستقبل المصيبة بالحسنة تستخلف بها نعماء. فإنّما نحن في الدنيا غرض تنتضل فينا المنايا، ونهب للمصايب. مع كل جرعة شَرق، وفي كلّ أكلة غَصص، لا تنال نعمةٌ إلاّ بفراق أُخرى. ولا يستقبل مُعمر يوماً من عمره إلاّ بهدم ما قبله من رزقه، ولا يحيا له أثر إلاّ مات له أثر. فنحن أعوان الحتوف على أنفسنا، فأنفسنا تسوقنا إلى الفناء فمن أين نرجو البقاء؟ وهذا الليل والنهار لا يرفعان في شيء شرفا إلاّ أسرعا في هدم ما رفعا، وتفريق ما جمعا؛ فاطلب الخير وأهله، واعلم أن خيراً من الخير معطيه، وأن شراً من الشر فاعله"[34].

يلاحظ في هذا النص الطويل غياب اسم المرسل: "فعزاه بعض العرب"، فالتركيز انصب على الرسالة نفسها بشكل رئيس، ويبدأ الخطاب بفعل أمر "اعلم"؛ فيحضر المتلقّي مصغياً منتبهاً، والأمر هنا خرج إلى غرض آخر هو النصح والإرشاد. والمتلقّي ، وإن غاب فعله ، يمْثُل شخصاً مسلوب الحيلة، ضعيف القوى، محتاجاً لمن يهبه بعض القوة عبر الكلمة الحانية الفاعلة. ويتكرر فعل الأمر في بقية أجزاء الرسالة، وكأنّه يعطي مرة بعد مرة شحنة قوية تشعر المتلقّي بقوة المرسل. أما فعل الأمر الأول في النص فهو "اعلم". ويتكرر هذا الفعل بهذه الصيغة أربع مرات في النص. ومن اللافت أن النص ينتهي بـ "اعلم" أيضاً. ولا ريب أن هذا التكرار له دلالته، فالعلمُ يسور الرسالة كلّها، وكأن المرسل

أراده بديلاً للحزن الذي يغلّف قلب المتلقّي ويتحكّم فيه. إن الرسالة تتوجه إلى العقل مباشرة، وتريد من المتلقّي أن لا يستسلم للحالة العاطفية التي تسيطر عليه، وأن يؤوب إلى العلم والوعي، وهذا كفيل برده إلى حالة التوازن النفسي التي أفقدته المصيبة إياها.

وتأتي أفعال الأمر الأربعة بـ "اعلم" شحنات متتابعة تتحدث عن حقائق الوجود والحياة والموت. وقد بدأ بالحقائق الكبرى ثم تدرج بالحديث عما ينبغي القيام به؛ فالخلق كلّهم للخالق، والموت حقّ، ولا سبيل لإعادة من يذهب، ولابد من الصبر. وإن التماس طريق الخير هو البر الآمن في كلّ حين. وقد سور المرسل رسالته بـ "اعلم" مُفْتَتَحاً وخاتمة ليبقى تأثير الشحنات فاعلاً عبر رسالة التعازي كلّها.

ويلاحظ أن أفعال الأمر الأخرى في النص كلّها تتّصل بدائرة العقل والوعي بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فقد استخدم المرسل الفعل "اعتبر" والاعتبار عملٌ عقلي. والفعل "احذر" وهو يتّصل بدائرة الوعي؛ يقول: "احذر من الغفلة استلاب النعم وطول الندامة"، ومنطوقه الحقيقي: "التزم الوعي". وكذلك الفعل "أفق"؛ والإفاقة المطلوبة هي الإفاقة من حالة الحزن واستبدالها بالصبر والرضى، وهو فعلٌ عقلي ذهني وجداني. كما استعمل المرسل فعليْ أمر يتّصلان بالدائرة السلوكية المبنية على العقل بصورة غير مباشرة، هما: "استقبِل، واطلُب". ومقصوده بالأول أن يستقبل المصيبة بالصبر فيبدل بها نعماء من حسن الذِّكْر والفضل، ولا ريب أن هذا يتم عبر جسر الوعي والإرادة. ومقصوده بالثاني أن يطلب الخير وأهله، وهو الآخر يحتاج وعياً وإرادة وتصميماً؛ وبذا تكون أفعال الأمر كلّها في النص: (اعلم بتكراراته الأربعة، واعتبر، واحذر، وأفق، واستقبل، واطلب) شحنات متتالية مؤثّرة، هدفها جذب المتلقّي إلى دائرة الوعي والعقل، ونقله إلى حالة الفهم والصبر والرضى. ويصف أحد الباحثين في فلسفة الموت ما يتناوب المرء إزاء حادثة الموت بقوله: "إن الشعور، وهو الحياة في صيغة حاضرٍ دائم، يقودنا عبر العالم في محاولة مستمرة لتأكيد وجوده. وهو تأكيد ينطوي على محاولة عبثية تود استيعاب اللانهائي في النهائي، وهذا التناقض الذي يحاول احتواء الاستحالة، يتحول إلى جهد يخرج عن نطاق السيطرة العقلية المباشرة، وتتولاه آلية نفسيةٌ لا شعورية، تبذل أقصى طاقاتها. إنّها فعالية تمثل تاريخ المحاولات المستمرة لتكريس الأمل بأن الحياة باقية فينا"(35).

وللنهي الأغراض ذاتها، ويرد في موضعين، وفي سياق لغوي واحد. الأول: جواباً للشرط والثاني معطوفاً عليه في قوله: "فإن أُنسيت الصبر فلا تغفل الشكر، وكلا فلا تدع". والنهي مثل الأمر يضع المخاطب في بؤرة الخطاب الفاعل مباشرة، وهنا ينصب التركيز على الصبر والشكر، وهما ما ينبغي أن تُدْفَع به المصيبة.

إن الدلالة محدودة بما يعرف بالموقف الإيصالي للكلام الإنساني، ويقوم وفقاً لـ"كارل بهلر" على القائل والمخاطَب ثم الحقائق التي يتعلّق بذكرها الغرض، ويضاف إليها العلامة اللّغوية التي تتوسط هذه الأطراف، ولها معها علاقات تتّصل بوظائفها وأبعادها السيموطيقية؛ فوظيفة اللّفظ بالنّسبة للقائل تعبيرية تظهر فيها ذات القائل، وتنزل منزلة القرينة عليها. ووظيفتها بالنّسبة للأشياء التي تدلّ عليها رمزية حيث تمثّلها وتحكيها، وبالنّسبة للمخاطَب تأثيرية؛ فالقائل يترقّب في لحظة انعقاد الكلام أن يتولّد بينه وبين المخاطَب مجال واحد يترقّب فيه أن يتحقّق للموقف الثّمرة المرجوة منه(36).

ولا تغيب الأخبار المؤكدة عن أجزاء الرسالة كلّها، وبأدوات توكيد مختلفة. والتوكيد جاء في معرض الحديث عن حقائق الوجود، وما يتّصل بفلسفة الحياة والموت وهما من المسلّمات التي لا تجادل. فمن التوكيد بـ "إن": "واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها"، ومن التوكيد بـ "قد": "وقد جاء ما لا يرد"، و"قد مضت لنا أصول نحن فروعها"، ومن التوكيد بأسلوب القصر: "فإنّما نحن في الدنيا غرض تنتضل فينا المنايا". والتوكيد يقوي الخطاب، والمصائب عادة تزعزع المعاني الثابتة، وقد تنال من حالة اليقين ببعض الأمور؛ فيأتي أسلوب التوكيد ليعالج ذلك كلّه. إن الخطاب هنا يتحول"عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التّأثيرية"(37). ولا ريب أن المؤكدات قد أسهمت في صناعة هذا التّأثير.

ويلاحظ في النص أن المرسِل عمد إلى تعميم الخطاب، خاصة في عرضه لحقائق الوجود وجدلية الموت والحياة. وقد استعان للتعبير عن هذا بعدد من الأساليب منها: استخدام مفردات جامعة تدلّ على البشر جميعاً مثل: "أهل الدنيا" يقول: "وإنّما أهل هذه الدنيا سفر لا يحلّون الركاب إلاّ في غيرها". وهي حقيقة جامعة تنطبق على البشر جميعاً. ومنها استخدام الضمير (نحن) الدالّ على البشر جميعاً، متّصلاً ومنفصلاً، ومنه قوله: "فنحن أعوان الحتوف على أنفسنا". ومنها استخدام لفظ التسوير "كلّ". ومنها أيضاً: استخدام النكرة المراد بها العموم، ومنه قوله: "ولا يستقبل مُعمر يوماً من عمره إلاّ بهدم ما قبله"؛ فلفظة "معمر" جاءت نكرة للتعميم؛ وهذا التعميم يراد منه إشعار المتلقّي بأنّه ليس وحده في هذا المصاب، وأن الفقد حالة إنسانية تعترينا جميعاً، وفي هذا كثير من العزاء والسلوى تذهب عنه الجزع من فكرة أنّه وحده في هذه المصيبة.

وهناك مراوحة بين هذا التعميم وخطاب الواحد المفرد بنسق واضح؛ فطرقة خاصة، وطرقة عامة. العامة فيها إشعار بجماعية الفقد، وأن البشر في هذا جميعاً سواء. والخاصة لتنقل المتلقّي إلى دائرة ما ينبغي عليه من سلوك. ومن الطرقات الخاصة: "فإن أنسيت الصبر، فلا تغفل الشكر".

ومن التراكيب النحوية التي تكررت في الخطاب (لا) النافية للجنس، التي تنص على استغراق النفي للجنس كلّه. وغرض استعمالها تعميم الخطاب، والقطع بالحقائق، فلا يعود المتلقّي متأملاً أية حالة استثناء له أو لمن يحب، ولا يعود منتظراً لتغير حالة الفقد إلى ضدها، فلا استثناء ولا رجوع في الموت، يقول: "ولا بد مما هو كائن، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات". إن المتلقّي يوقن بعد سماع هاتين الجملتين بأن جميع الخلائق يخضعون لهذه القاعدة، وأنّهم إزاءها سواء؛ وبذا يستسلم لقضاء الله وقدره، فإن "اليأس إحدى الراحتين" كما يقال.

وتتنوع الأساليب اللّغوية المستخدمة في هذه الرسالة اللّغوية، وذلك للتأثير في المتلقّي بأكثر من طريقة لضمان تهدئة خاطره، وإحداث التوازن النفسي المطلوب من جهات متعددة. ومن ذلك أسلوب الشرط، ومنه قوله: "فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع، فإن رأيت الجزع رد أحداً منهم إلى ثقة من درْكٍ فما أولاك به". وهذا الشرط لا يقصد به المعنى الحرفي للشرط، وإنّما هو أداة لوضع المتلقّي أمام تحد عقلي منطقي يدفعه للتدبر والتفكّر، لِيخْلُص إلى نتيجة محتّمة مؤكدة قوامها: لا أحد ممن مات رده جزع أهله عليه. وجواب الشرط إمعان في وضع هذا المتلقّي أمام الحقيقة. إنّه يقول له: "أمعن في الجزع فأنت أولى الناس به إن حدث أنْ رد الجزع أحداً إلى أهله". وتتحول الجملة في نفس المتلقّي إلى: "لم أر أحداً رده جزع أهله عليه حياً، ولذا فما أولاني بالصبر". إن الجزع يلتهم عافيتنا، ويستهلك ذواتنا، ويؤلمنا أكثر، والبديل المنطقي له هو الصبر بلسم الجروح.

ومن هذه الأساليب كذلك أسلوب التعجب، ومنه قوله: "فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند الغِير"، وهو تعجب يراد به التحفيز والحثّ على الشكر والتسليم. ومنه أسلوب القصر والحصر مثل قوله: "إنّما نحن في الدنيا غرض تنتضل فينا المنايا ونهب للمصايب". وفي هذا الأسلوب تركيز لذهن المتلقّي في مركز القضية، وفيه لون من التوكيد؛ ففرق بين قول القائل: "نحن في الدنيا غرض"، وقوله:" إنّما نحن في الدنيا غرض". أي نحن هدف للمنايا ونهب للمصايب، ولن نكون إلاّ كذلك. وهذا الأسلوب يجعل المتلقّي يوقن أن لا مناص من هذا الحتم للبشر جميعاً فيستسلم للصبر وهذا هو الغرض.

ومن هذه الأساليب كذلك الاستفهام الذي يخرج عن غرضه الأصلي إلى النهي أو النفي. وبهذا الأسلوب ابتعد المرسِل عن المباشرة التي قد لا تؤدي إلى الغرض، فبدلاً من أن يقول: "لا تجزع" قال: "فما الجزع مما لابد منه". فخرج من النهي المباشر إلى الاستفهام المراد به النهي وهو أوقع؛ فالاستفهام يبغي طلباً، فيصبح المتلقّي متورطاً بالإجابة؛ فيصبح جزءاً من الفكرة بدل أن يكون مطلوباً منه الكفّ عبر النهي المباشر؛ ففرق بين الإجابة فالاستجابة، وبين مجرد الكفّ والانتهاء بناء على طلب الآخر، مما يترك الفرصة للمتلقّي للتفكّر والتدبر، فيكون جوابه ومن ثم استجابته قراراً ذاتياً مرشّحاً للاستمرارية. وبدلاً من أن يقول بشكل مباشر: "لا حيلة فيما سينقل..." قال: "وما الحيلة..." فهو استفهام يراد به النفي. فلعلّ المتلقّي يتشكّك في قول المرسل إذا قال له: "لا حيلة" فيأتي الاستفهام ليدفعه إلى النظر والتفكّر، وليخْلُص بنفسه إلى هذه النتيجة.

إن هذه الأساليب جميعاً تدعوه إلى الصبر والتسلّي والتأسي؛ فكلّ جملة في النص تحمل هذا المعنى بشكل أو بآخر، لكنّه عبر عن الصبر بلفظه في موضعين في النص، الأول: قوله: "فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر"، وهي جملة خبرية مُثْبَتة تأتلف من مبتدأ وخبر وبعض المتممات، وجاء المبتدأ اسم تفضيل "أفضل"، معرفاً بالإضافة إلى اسم مجموع مبهم محلّى بأل هو "الأشياء"، وهذا يعطي للمبتدأ معنى: "أفضل الأشياء على الإطلاق". وقيد هذه الأفضلية وهذا الإطلاق بشبه الجملة الظرفية "عند المصائب"؛ فيكون الصبر هو أفضل الخيارات مطلقاً عند المصيبة. وجاء الخبر "الصبر" محلّى بأل الدالّة على الاستغراق، والخبر حقّه التنكير؛ فالأصل أن يقول: "صبر" لكنّه عرفه ليدلّ على الاختصاص؛ أي إنّه لا "أفضل" غيره وقت المصيبة. و (ال) في هذا السياق تعني الكمال، أي كمال الصبر.

أما الموضع الثاني فهو: "فإن أنسيت الصبر فلا تغفل الشكر وكلا فلا تدع". والشكر فوق الصبر، وهو يريد له أنْ لا يدع الاثنين، وجاء الصبر مفعولاً به للفعل "أُنسْيت" في جملة الشرط؛ فالصبر قد أغفل هنا، وعليه أن يعوض ذلك بما هو أكبر منه، ألا وهو الشكر.

ومن جهة أخرى فإن لغة هذه الرسالة وتراكيبها ومفرداتها تدلّ على أنّها قيلت في العصر الجاهلي؛ فهي تختلف عن روح رسالة التعازي في العصر الإسلامي، التي ركزت على الصبر أيضاً، ولكن من وجهة نظر الدين

الحنيف. وتحدثت عن الأجر في الآخرة وما أعده الله للصابرين يوم القيامة. فالعصر وروحه لهما انعكاس في شكل رسالة التعازي ولغتها، وإن لم يتغير مضمونها كثيراً. ولعلّ هذا ينقلنا إلى ما أشار به (شولز) بقوله: "إن فعل قراءة النص ينطوي على معرفةٍ خاصةٍ بموروثه، وينطوي أيضاً على مهارةٍ تأويلية خاصة"[38].

التشكيلات اللغوية للصبر في رسالة التعازي

يمثل "الصبر" الفكرة الأساس التي تقوم عليها رسالة التعازي، وقد توسل المعزون إلى إظهارها بأشكال لغوية شتى، بغرض حمل المتلقّي على الصبر، أو إعانته عليه. وهذه الأشكال متعددة ومتداخلة - عادة- وإفراد كلّ شكل لغوي هنا هو لغايات الدرس ليس إلاّ. ومن أبرز هذه الأشكال ما يمكن أن نطلق عليه أسلوب الاختصاص والاستغراق، ومنه أن "سليمان بن عبدالملك قال لعمر بن عبدالعزيز: هل يكون المؤمن في حال تنزل به المصيبة فلا يألم لها؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. لا يكون أن يستوي عندك ما تحب وما تكره، ولن تكون السراء والضراء عند أحدٍ سواء. ولكنْ معولُ المؤمن الصبر"[39].

في هذا النص يوطّئ المرسل لحديثه عن الصبر بتقرير حقيقة أن السراء والضراء لا يمكن أن تكونا في نفس أحد على سوية واحدة؛ فالضراء تؤلم وتوجع، والسراء تسعد وتبهج. ولن يستطيع احد، مهما كان وأياً كان، أن تنزل به المصيبة، وهي أشد الضراء، ثم لا يألم لها ولا يتوجع، وكأنّها لم تكن. إلاّ أن المؤمن يستعين بالصبر لتهوينها؛ فهو عدة المؤمن وسلاحه لمواجهتها. وعبر عن هذا المعنى بجملة استدراكية، استدرك فيها على نفي استواء السراء والضراء في النفس الإنسانية؛ فتكون وظيفة جملة الاستدراك إحداث انعطافة في النفي، لا تكسره تماماً ولكن تخفّف منه. فيصبح المعنى: لا تستوي السراء والضراء عند أحدٍ أبداً، إلاّ أن الصبر يمكنه تهوين الضراء إلى أقصى درجة ممكنة، فكأنّها لم تعد ضراء.

وجملة الاستدراك هذه جملة اسمية بسيطة، المبتدأ فيها هو المركّب الإضافي "معول المؤمن"، وتقييد المبتدأ بالمضاف إليه "المؤمن" إشارة من المرسِل إلى أن هذا لا يكون إلاّ للمؤمن؛ فالمؤمن يعول على الصبر لأنّه ينتظر الأجر يوم القيامة، ومن لا يؤمن بالقيامة أنّى له هذا المعنى؟

من جانب آخر فإن جملة المبتدأ والخبر في العربية تقوم عادة على التباين بين المبتدأ والخبر في مسألة التعريف والتنكير؛ فالمبتدأ حقّه التّعريف، والخبر حقّه التنكير. ويكون تعريف الخبر لأغراض يريدها المرسِل ومن أبرزها التوكيد والقصر والاختصاص. وقد أشار الجرجاني إلى بعض الفوائد المجتباة من الخبر المعرف بالألف واللام، ومنها أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه بقصد المبالغة[40]؛ فيكون المعنى المتحصل بتعريف الخبر "الصبر": لا معول للمؤمن إلاّ الصبر. وفرق بين أن نقول: "معول المؤمن صبر"، وقولنا: "معول المؤمن الصبر"؛ ففي الأولى يمكن أن يُجْزِئه أي كمية من الصبر، وفي الثانية يحتاج الصبر كلّه، وفي الأولى أيضاً يمكن أن يعول المؤمن على شيءٍ غير الصبر، وفي الثانية لا معول له إلاّ الصبر فهو مختص به. وهذا معنى دلالته على الاختصاص والكمال المتحصل بتعريف الخبر بأل الدالّة على الكمال، مما يدلّ على أن المصيبة ليست حدثاً عابراً يستطيع المرء تجاوزه بسهولة، كما أن استخدامه كلمة "معول" بعينها يدلّ على أن الصبر هو قوام ما يدخره المؤمن لمثل هذا اليوم العصيب، ومن غيره يصبح المرء هشّاً ضعيفاً.

ومن هذه الأشكال أيضاً أسلوب المقابلة بين الصبر والجزع، ومنه تعزية لبعضهم قال: "عظّم الله أجركم، وألهمكم الصبر فإن الصبر محمود العاقبة، وليس في الجزع عصمة من النائبة"[41]. وتبدأ التعزية بدعاء ذي شِقّين: إعظام الأجر، وإلهام الصبر، ولا يكون الأول إلاّ بالثاني، فالأجر إنّما يكون لمن أُصيب فصبر. وقوله: "ألهمكم الصبر" اعتقاد من المرسل أن هذا الصبر ليس ملَكةً داخلية يستخدمها المرء متى شاء، وإنّما هي هبة من الله وإلهام منه، ولا يكون إلاّ بمعونته سبحانه وتعالى. ثم يشْرعُ المرسِل في تسويغ دعائه للمصاب بإلهام الصبر الذي مغبته تعظيم الأجر. وهذا التسويغ مسبوقٌ بفاء السبب و(إن) التوكيدية، مما يدلّ على اعتقاده الراسخ بما يقول. وهذا التوكيد كفيلٌ بإحداث أثر إيجابي في المتلقّي يحمله على الأخذ بما يقوله هذا المعزي. ويقوم هذا التسويغ على إيراد الصبر وضده في جملتين متعاطفتين؛ أما الصبر فجاء في جملة خبرية مؤكّدة بـ "إن" "إن الصبر محمود العاقبة". وتعريف الخبر مع المبتدأ يفيد القصر والاختصاص – كما أسلفنا – أي إن العاقبة المحمودة مقصورة على الصبر وحده، والصبر محمود العاقبة دائما. أما "الجزع" وهو ضد "الصبر" فإنّه ورد في جملة خبرية منفية: "وليس في الجزع عصمة من النائبة". وقدم المرسل خبر ليس "في الجزع" ليركّز على هذا الجزع؛ فأصل الجملة: "وليس عصمة من النائبة في الجزع"؛ فالجزع هو البديل الشعوري والنفسي والعاطفي المطروح للصبر؛ فإذا صبرت فالعاقبة محمودة، وإن تأخرت ثمارها (يوم القيامة). وإن جزعْت، ظنّاً منك أن

هذا الجزع سيعصمك من النائبة، فإنّك واهم. إن حديث المرسل عن أثر الجزع في اهتزاز الشخصية إزاء الموت، ومحاولته رد المصاب إلى دائرة اليقين مرده "أنّه كلّما كان الشعور بالشخصية أقوى وأوضح، كان الإنسان أقدر على إدراك الموت"[42].

ويلاحظ أن المصدر "عِصْمة"، وهو يعني المنع تماماً، جاء منفياً في حقّ النائبة مع الجزع. وأن اسم المفعول "محمود " جاء مثبتاً في حقّ الصبر؛ فالنّفي لمطلق العصمة مع الجزع، والإثبات لحمد العاقبة مع الصبر. وراوح المرسل بين حرفي الجر (من، وفي) في التركيبين: "في الجزع" و"من النائبة"، وكأن المصاب قد استجمع قواه كلّها وجهده كلّه، وتسور في وعاء الجزع ليصد هجمة النائبة، ثم لم يغنه هذا شيئاً. ومنطوق الجملة: أن الجزع لا يقي ولا يعصم من النائبة وقت وقوعها (فليس هي لنفي الحال)؛ فما بالك بقدرته على أن يكون محمود العاقبة في المستقبل من زمن القيامة؟

ويشبه هذا النص – نسبياً- نص آخر يقول فيه المعزي: "استعن على مصيبتك بالصبر على ما فات، ولا تبخس نصيبك من ثواب الله بالجزع الذي لا يجدي عليك ولا يغني عنك"[43]. ويلاحظ أن المرسل في هذه الرسالة قد خاطب المتلقّي خطاباً عقلياً، بلغة هادئة مؤثرة تجعله يفكر في هذين الخيارين تفكيراً ملياً، الكفّة فيه راجحة للصبر بلا منازع. وتقوم هذه الرسالة أيضاً على فكرة الصبر وضده، في صورة تقابلية واضحة. وخصص للصبر الجزء الأول من الرسالة، واتّخذ من (الأمر) وعاءً تركيبياً للتعبير عنه قال: "استعن على مصيبتك بالصبر على ما فات". وفعل الأمر "استعن" خرج عن معناه الأصلي إلى معنى النصح والإرشاد، والسين في صدر هذا الفعل زيادة في الطلب، وهو يشبه قول المعزي في النص السابق خبراً: "معول المؤمن الصبر"، فهو يخبر المتلقّي أنّه لا يمكنه مواجهة المصيبة من غير الاستعانة بالصبر. وزيادة في التركيز على الاستعانة، فإنّه قد استخدم الباء الدالّة على الاستعانة قبل الصبر، وأطلق على المصيبة "ما فات"؛ فاستخدام الاسم الموصول المبهم "ما" محاولة منه لتخفيفها في نفس المتلقّي، بجعلها شيئاً غائماً مضى. وفي الصورة المقابلة فإن المرسل ينهى المتلقّي أن يبخس نصيبه من ثواب الله بالجزع. والنهي في قوله: "لا تبخس" خرج أيضاً عن معناه الأصلي إلى معنى النصح والإرشاد، وفي مقابل المبهم "ما فات" في الجزء الأول نجد النهي عن البخس يقع على شيء واضح جلي ظاهر هو "ثواب الله"، وفيما هذا المبهم هو جزء مما مضى من عمر المتلقّي وحياته، فإن "ثواب الله" هو مما سيأتي في غيب القيامة؛ فالموازنة الحقيقية تقتضي أن لا نضحي بالقادم الخالد من ثواب الله لصالح مبهم مضى وفات. واستخدام (باء) الاستعانة دون فعلها يدلّ على أن الجزع هو الانفعال العفوي الطبيعي إزاء المصيبة، فلا يحتاج إلى فعل يعبر عنه. أما الصبر فهو فعلٌ يحتاج تصميماً وإرادة وشجاعة.

وقد أورد الصبر على المصيبة مطلقاً من غير وصف فيما وصف الجزع وصفين بهدف التنفير منه وعدم تفضيله خياراً لمواجهة المصيبة. أما الأول فهو أنّه "لا يجدي عليك"؛ فهو عديم الجدوى إزاء المصيبة، ومنطوق الجملة الحقيقي أن الصبر ذو جدوى بالغة إزاء المصيبة فهو يخفّفها ويهونها. وأما الثاني فإنّه "لا يغني عنك"؛ فهو لا يرد ميتاً، ولا يغير حالاً؛ أما الصبر فهو لا يرد ميتاً، وإنّما يفتح لك أبواب الأمل باللقاء بعد الموت والأجر. وهو قادر على استبدال ألمك بالسكينة والتوازن النّفسي. وكأن رسالة التعازي تبرز المعادلة المزدوجة التالية:

- **الاستعانة على المصيبة بالصبر= جدوى في الدنيا (سكينة، توازن، هدوء) + جدوى في الآخرة (ثواب الله).**
- **الجزع أمام المصيبة = "لا جدوى" في الدنيا (خوف، فقد، ألم، حزن، ...) + "لا جدوى" في الآخرة (ضياع ثواب الله).**

وكثيراً ما يستعين المعزون باسم التفضيل لإظهار أفضلية الصبر على الجزع وأهميته وفائدته وأجره. ومنه ما عزى به رجلٌ رجلاً قال: "إن الماضي قبلك الباقي لك، وإن الباقي بعدك المأجور فيك، وأجر الصابرين فيما يصابون به من أعظم النعمة عليهم فيما يعانون منه"[44]. وإذا كان المرسل قد ذكر الصبر صراحاً في القسم الأخير من الرسالة، فإنّه ماثل في كلّ جزء منها. فالماضي قبلك ممن ماتوا لك يكون الباقي لك إذا صبرت، وإن الباقي بعدك المأجور فيك إذا هو صبر؛ فلا أجر ولا ثواب على المصيبة وحدها من غير صبر. وفي هذه الجملة إشارة إلى أن كل أحد سيكون يوماً ماضياً لأحد ما، وقد كان باقياً بالنسبة لمن سبقه. وفي هذا (تعميم فكرة الموت للجميع) تهوين للمصيبة، والحديث عن الأجر فيه ترغيب بالصبر.

ويأتي التّعقيب بعد ذلك بذكر الصبر صريحاً؛ وعبر عنه بجملة اسمية بسيطة المبتدأ فيها هو "أجر الصابرين"، وعلّقه بشبه الجملة "فيما يصابون به". أما الخبر فقد استعان فيه باسم التفضيل "أعظم" فأجر الصابرين على مصاب الموت من أعظم النعم، مقارنة بأجر صبرهم على ما سواه من ألوان المعاناة والبلاء. فهي دعوة للصبر عبْر التركيز على أفضلية

أجره وثوابه، وعبْر التركيز على أن هذا الثواب هو ما يبقى من المصيبة إذا اقترنت بالصبر؛ فهي تمضي بكلّ ألمها وحزنها ويبقى أجرها الذي هو أعظم النعم.

ومن توظيف اسم التفضيل في الحديث عن الصبر أنّه حين مات أيوب بن سليمان بن عبدالملك، "ودفن وحثي عليه التراب وقف أبوه قليلاً ينظر إلى قبره، ثم قال: أدن يا غلام دابتي، فركب ثم عطف برأس دابته إلى القبر، ثم قال:

فإن صبرتُ فلم ألفظك من شِبعٍ وإن جزعتُ فَعِلْقٌ منْفِس ذهبا

فقال عمر بن عبدالعزيز: يا أمير المؤمنين، بل الصبر، فإنّه أقرب إلى الله وسيلة، وليس الجزع يحيي من مات، وبالله العصمة والتوفيق"(45).

وتظهر هذه الرسالة الألم الفظيع الذي يذهب بالنفس لموت الولد، وقد كان عند سليمان بن عبدالملك سبب إضافي آخر للجزع على ولده هو أنّه ولي عهده. ويهمنا هنا رسالة العزاء التي تضمنها قول عمر بن عبدالعزيز، وفيها إضراب بـ "بل" عن الجزع المتضمن في قول سليمان بن عبدالملك: "وإن جزعت فَعِلقٌ منفس ذهباً"؛ فسليمان ينفي عن نفسه أن يكون خيار الصبر سلواً واكتفاءً من الحزن على ابنه. ويبرر لنفسه اختيار الجزع، لأن ابنه عِلْقٌ نفيس وقد ذهب. فيحرضه عمر على اختيار الصبر، واستعان على هذا التحريض وهذا التحفيز بأمرين: الأول اسم التفضيل "أقرب" فليس الصبر سلواً ونسياناً لمن نحب، واكتفاء من الحزن عليهم، بل لأنّه أقرب إلى الله. والثاني: النفي، فهو ينفي جدوى الجزع في رد من مات؛ وبذا يكون الإضراب عن الجزع إلى الصبر هو الخيار الأمثل. والصبر هنا "وسيلة"، وفي نص آخر "أداة"(46)؛ أي إنّه ليس مقصوداً لذاته، بل لما يحقّقه من منافع، وعلى رأسها الأجر.

وقد يعبر المعزون عن الصبر بطريق غير مباشر، عبر تسليط الضوء على الجزع، لينفر المتلقّي منه إلى الصبر. ومنه ما كتبه غيلان إلى صديق له يعزيه عن ابن له: "اعلم أن كلّ مصيبة لم يُذْهِبْ ترجي ثوابها حُزْنَها إن ذلك الحزن الدائم"(47). وتبدأ هذه الرسالة القصيرة بفعل الأمر "اعلم"، ولا يقصد به هنا محض الأمر، وإنّما يقصد به محاولة إعادة المتلقّي إلى دائرة الوعي واليقين. والمطلوب علمه أن كلّ مصيبة غير مقرونة بالصبر فإنّها هي الحزن الدائم، وليس حالة الفقد التي تعرض لها المتلقّي. وأما لفظة التسوير "كل" فتفيد أن الصبر لازم في كل مصاب، ومهما ظن صاحبه أنّه مختلف فيه عن سواه. وتدلّ كذلك على أن ما يلي الفعل "اعلم" يأخذ شكل القاعدة الثابتة، وقوام هذه القاعدة أن الحزن الدائم هو المصاب الذي لا يقترن بالصبر، وأن الصبر كفيلٌ بإذهاب الحزن الذي يرافق المصيبة، وأن الحزن للفقد مع وجود الصبر هو حزن مؤقّتٌ عابر لا يلبث أن يتلاشى. وجاء هذا المطلوب علمه جملة اسمية مؤكدة بـ "أن". وخبرها جملة اسمية مؤكّدة بـ "إن": "إن ذلك الحزن الدائم"، وفي هذا توكيد بعد توكيد. أما جملة الخبر فائتلفت بدورها من ركنين: اسمها (ذلك) وهو يشير إلى المصيبة غير المقترنة بالصبر، والخبر "الحزن" وجاء اسماً معرفة ليدلّ على الاختصاص؛ أي إن الحزن الدائم مختص بالمصيبة غير المقترنة بالصبر، أما المصيبة التي رافقها الصبر فحزنها عابر مؤقّت. و(ال) الاختصاص التي تفيد تمام الكمال في "الحزن" تدلّ على أن عدم الصبر مع المصيبة كأنّه هو الحزن كلّه. ولم يكتفِ بهذا، بل أضاف إليه نعتاً قاسياً هو (الدائم)؛ فهذه المصيبة؛ غير المقترنة بالصبر، هي الحزن كلّه الوقت كلّه ودائماً.

كما أنّه في توسله باسم الإشارة "ذلك"، وهو من أقوى المعارف؛ لأنّه يفيد تمثّل المشار إليه حاضراً، كأنّه يقول: "هو هو الحزن الدائم وليس شيئاً آخر". لقد أراد المرسل أن يقول للمتلقّي: "عليك بالصبر" لكنّه استعاض عن هذه الجملة المباشرة بجملة أخرى غير مباشرة، على نحو ما رأينا، وهذا أكثر تأثيراً، فأصبحت الرسالة تقول: إذا أردت الحزن كلّه دائماً فلا تصبر على مصيبتك، وإذا أردته عابراً مؤقّتاً خفيفاً فعليك بالصبر. ومنْ يختار الحزن كلّه الوقت كلّه ودائماً؟ إنّه بالضرورة من لا يعلم، ولذا صدرت الرسالة بـ "اعلم". ويتكرر هذا الفعل كثيراً في رسائل التعازي، وكأنّما يريد المعزون أن ينقلوا المتلقّين، الذين يعانون من وطأة المصيبة، من دائرة الحزن والانكفاء والألم، إلى دائرة الخيار العاقل الذي يريحهم في الدنيا ويعوضهم عن كلّ ذلك بالأمل فيما ادخر عند الله من ثواب.

ويبدو الشرط وعاءً لغوياً مفضلاً عند التعبير عن المفاضلة بين الصبر والجزع، وأكثره بـ "إنْ" الشرطية. وقد تقوم الرسالة كلّها على أسلوب الشرط، ومنه ما قاله علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) للأشعث معزياً عن ابن له قال: " يا أشعث، إن تجزع على ابنك فقد استحقّت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله خلف. يا أشعث، إنّك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور"(48).

وفي هذا النص يعرض علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) المسألة على جرعتين، كل منهما تتألف من جملتين شرطيتين؛ أما الجرعة الأولى فيشاطر فيها الإمام علي (رضي الله عنه) الأشعث إحساسه بأن فقد الابن ألم عظيم، وأن التعبير عن هذا الألم

مشروع ِلحق الرحم بين الوالد والولد؛ فالولد من أبويه بمكان؛ ويبدأ المرسل هذه الجرعة بالنداء الذي يُلاطف الحوار، ويُشْعِرُ بالقرب، ويستدعي الاستماع من المتلقّي: " يا أشعثُ". وفي هذا النداء رسالة أخرى، فكأنّه يقول له: نعم أنت يا أشعث، أعنيك أنت نفسك، وليس أحداً آخر، وبعد هذا النداء جاءت الرسالة، وفي قالب من الشرط الذي لا يقصد به الشرط، وإنّما يقصد به عرض الخيارات على المتلقّي. وكان قوام هذه الجرعة جملتين شرطيتين متعاطفتين: "إن تجزع على ابنك فقد استحقّت ذلك الرحم وإن تصبر ففي الله خلف". إن الألم والحزن لفقد الابن يُذْهِبُ النفس حسرات، فليس من الحكمة أن يُجابه الأب المفجوع مباشرة بطلب الصبر، ولذا فقد تروّق به المرسل، وجعل الصبر خياراً ثانياً، مع إضافة فائدته وأثره "وإن تصبر ففي الله خلف"، وفي الجملة حذف؛ فقد حذف المضاف وأبقى المضاف إليه، وأصل الجملة: "وإن تصبر ففي أجر الله خلفٌ"، لكن هذا الخَلَف منوط بالصبر.

ويلاحظ أنّه في الجملة الشرطية الأولى، التي تتحدث عن حقّه في إظهار حزنه وألمه على فقد ابنه، جعل الشرط وجوابه فعلين؛ أما فعل الشرط فمضارع يتحدث عن مستقبل قريب جداً "إن تجزع"، فهو الفعل الذي تقابل به المصيبة مباشرة عادة، وجوابه ماضٍ مقرون بـ "قد" التي تفيد التحقيق: "فقد استحقّت"، وذلك أنّه يتحدث عن صلة الرحم بين الوالد والولد وهي أمر واقع محصلٌ قبل المصيبة وبعدها. أما في حديثه عن الصبر في الجملة الشرطية الثانية فقد كان فعل الصبر مضارعاً دالا على استقبال قريب": "وإن تصبر"، وجعل جواب الشرط جملة اسمية دالّةً على ثبوت عاقبة الصبر: "ففي الله خلف". وفي هذه الجملة الاسمية قدم الخبر شبه الجملة "في الله"، وذلك ليركّز على "الله" سبحانه وتعالى وما عنده من أجر؛ فإن استحضار "الله" في ذهن المصاب وقلبه كفيل بأن يخلفه عن كلّ ألم وعزاء. وإن كان تقديم الخبر له سبب نحوي مباشر هو تنكير المبتدأ "خلف"، إلاّ أن المعنى المقصود هو السبب الأساسي في تقديمه، على نحو ما أوضحنا.

أما الجرعة الثانية فقد بدأها بالنداء أيضاً: "يا أشعث"، استجاشةً ثانية لمشاعره واستجابته وانتباهه، ثم جاءت الرسالة خطوة أخرى في التدرج بالتعزية. وقوام الجرعة الثانية أيضاً جملتان شرطيتان متعاطفتان مسبوقتان بالتوكيد، في نسق واضح مع الجرعة الأولى. وهما جملتان متقابلتان تحمل كلٌّ منهما خياراً. الجملة الأولى: "إنّك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور". واقتران الشرط بالتوكيد معناه أن خيار الصبر مع الأجر محتم العاقبة، وعبر عن حال المخاطب مع الأجر بصيغة الخطاب، وبجملة حاليةٍ اسمية تفيد الثبوت: "وأنت مأجور". والجملة المقابلة: "وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور"، وهو خيار محتّم العاقبة أيضاً؛ فالتركيب كلّه مسبوق بـ "إنّك"، وهو خيار الجزع مع الوزر. ونجده في هذه الجملة يعبر عن خيار المخاطب مع الوزر بجملة حالية اسمية تفيد الثبوت: "وأنت مأزور". ويُلاحظُ أنّه استعان لإحداث المقابلة بالمتطابقات: فـ "صبرت" في مقابل "جزعت"، و"المأجور" في مقابل "مأزور"، أما القدر فجاء في الحالتين. وهذه الجرعة تمتاز بدرجة شدة أعلى من الأولى. وفيها ضرب من المفاصلة في الاختيار. ولا ريب أن أسلوب المقابلة، وما فيه من متطابقات، قد أسهم في إظهار حدية الاختيار.

وقد يستخدم المعزي الشرط بـ "لو" التي تفيد الامتناع للامتناع، ومنه ما عزى به محمد بن الفرات الشيباني رجلاً قال: "لو أن جزعاً على رزية وقّى حلول نائبة، أو وقّى رجع فائت، لتقدم منه العاقل، واعتصم به الخائف، ولكن الصبر طوعاً وكرهاً"[(49)]. والتركيز هنا على الجزع؛ فهو موضوع الشرط، وجاء الصبر استدراكاً. والمرسِل يقول: لو مكّن الجزع من اتّقاء نائبة أو تغييرها، أو مكّن من استعادة فقيد فارقناه، لأضحى هذا الجزع مهوى أفئدة العاقلين والخائفين. فلما امتنع الجزء الأول من الشرط امتنع الجزء الثاني؛ فالجزع لا يعيد أحداً، ولا يخفّف من نائبة؛ ولذا فالعاقل لا يتقدم منه، والخائف لا يعتصم به. وملاذهما هو الصبر لا الجزع. وقد نكّر لفظة "جزعاً" للتعميم، مما يدلّ على أن كميته مفتوحة؛ أي مهما بلغ هذا الجزع وتعاظم، ومهما كان شكله ونوعه فهو عديم الجدوى. وحين يقتنع المتلقّي بهذا، بامتناعه التعاطي مع الجزع، يستدرك المرسل بالصبر استدراكاً لطيفاً؛ أي ليكن خيارك التالي هو الصبر بعد أن ضربت صفحاً عن الجزع. وتقدير جملة الاستدراك: "الزم الصبر طائعاً وكارهاً" على تقدير الحال؛ طائعاً لأنّك أُمِرْتَ بالصبر وكارهاً لأن الصبر مر صعب، ومرة أخرى يركّز المرسل على خطاب العقل والوعي لدى المتلقّي المفجوع؛ ليعيده إلى حالة من التوازن النفسي والعقلي، وليرده إلى واحة اليقين وحسن الاختيار.

ويعدون الجزع مصيبة أخرى تضاف إلى المصيبة الأولى، بل يعدونه أعظم المصيبتين، ويتوسلون للتعبير عن هذه الفكرة، بأسلوب التفضيل والعدد، ويمكن أن نطلق على هذا التشكيل اسم: "تعاظم المصيبة"، وبهذا المعنى عزى الحسن رجلاً عن ابنه قال: "إنّما استوجب على الله الأجر من صبر على ما لحقه، فلا تجمع بين ما أصبت به من الفجيعة

بالأجر، فإنّها أعظم المصيبتين عليك، وأنكى الرزيتين لك"[50].

ومن التراكيب المحفّزة على الصبر في النص "استوجب". واللفظ "وجب" وحده فيه تحفيز كاف، أما اقترانه بالسين فهو وجوب فوق وجوب، واستحقاق فوق استحقاق. وجاءت هذه العبارة على شكل تقرير عام لكل من لحقته المصيبة، ومجيئها بصيغة القصر زيادة في التوكيد والتخصيص: "إنّما استوجب على الله الأجر من صبر على ما لحقه. و"منْ" في هذه العبارة تدلّ على العموم، ثم يتحول الخطاب إلى المباشرة ليكون بعد ذلك خاصاً بالمصاب؛ فهو المعني به وحده، وهذا أوقع في التأثير. وجاء الخطاب أولاً بصيغة النهي: "لا تجمع"، ووقع النهي على الجمع بين الفجيعة وضياع الأجر بالجزع، وهو أعظم المصيبتين. وأدى اسما التفضيل: "أعظم، وأنكى" دوراً كبيراً في تعظيم مصيبة ضياع الأجر، والثاني اشد قسوة، ومفردات مثل: الفجيعة، والمصيبة، والرزيئة، كلّها مؤلمة، وكلّها تحرضك ألا تجزع. وجملة الخاتمة مبدوءة بـ "إن" لتدلّ على وثوق القائل بما يقول، واستحقاق هذا الأمر وثبوته، وليكون ذلك أدعى إلى استجابة المتلقّي. واستعان بحرفي الجر (على واللام) مقترنين بكاف الخطاب (عليك، ولك) ليضع المتلقّي في بؤرة الخيار. وفي النص محاورة عقلية لخيارات المتلقّي، وتحفيزه على اختيار الصبر عبر تعظيم المصيبة مع الجزع.

ويلتقي هذا المعنى مع تعزية لابن السماك يقول فيها: "المصيبة واحدة فإن جزع صاحبها منها اثنتان. وما من مصيبة إلاّ ومعها أعظم منها: إنْ صبر فالثواب، وإن جزع فسوء الخلق. ويكون ما فاته من ثواب الله أعظم من المصيبة"[51]. وفي رواية ابن قتيبة: "واعلم أن المصيبة مصيبتان إنْ جزعت، وإنّما هي واحدة إن صبرت، فلا تجمع الأمرين على نفسك"[52]. في هذا النص يصف ابن السماك تولّدات المصيبة مع الجزع، فهي في الأصل واحدة لكنّها مع الجزع تتوالد. لكنّها مع الصبر تضمحلّ، ومعها الثواب في الآخرة. ومرة أخرى يستعين المعزي بأسلوب الشرط لعرض الخيارين. فهم يعدون الجزع من سوء الخلق، والصبر من حسن الخلق، وهذا ملمح لساني اجتماعي هام.

وفي رواية ابن قتيبة توظيف للعدد في تشخيص المصيبة، لكنّه تناقصي، يبدأ باثنتين ثم ينحسر بالصبر إلى واحدة، أما في الصياغة الأولى فتوظيف العدد يأخذ منحىً تصاعدياً يبدأ بواحدة (مصيبة) ثم يكون بالجزع اثنتين. وهدف الصياغتين واحد هو التنفير من الجزع والترغيب بالصبر. لكن التركيز في رواية ابن قتيبة على أثر الصبر في تخفيف المصيبة، والتركيز في رواية المدائني على الجزع وأثره في مضاعفة المصيبة؛ فهي تشبه الطرق المتعددة للموضع الواحد.

وتعد أدوات التوكيد بأنواعها من التراكيب اللّغوية المستخدمة بكثرة في التعبير عن الصبر بهدف رد المتلقّي إلى دائرة الوعي واليقين وحسن الاختيار. ومنه ما عزى به رجلٌ من بكر بن وائل رجلاً عن أبيه كتب إليه: "يا بني، إن احتمال المضاضة في أول الصبر حين ينقطع الحزن أيسر نكاية من آخر الجزع، وإن أمراً لا يُعْقّبُ مُصْدِرُه إلاّ بالندم، ولا تخاص منه إلاّ إلى الإثم، لحقيق ألاّ تستقبل مُورده إلاّ بالقمع والقرع والسلو"[53].

ويأتي النداء المحبب في أول الرسالة استجاشة لطيفة للاستجابة "يا بني". ثم توالت المؤكدات بـ "إن" في قوله: "إن احتمال"، و"إن أمراً". ولام الابتداء في قوله: "لَحقيق"، و أسلوب القصر في قوله: "ألاّ تستقبل.... إلاّ". ويلفتك في هذا النص استثماره للمفردات المتطابقة: (أول وآخر)، و(مصدره، ومورده)، و(يعقب، تستقبل). وهي تظهر التناقض التام بين خيار الصبر وخيار الجزع. ويلفتك كذلك البعد الزمني لأول وآخر، فحزن المصيبة يبدأ في أوله كبيراً ثم لا يلبث أن يخبو، وإذا اقترن بالصبر فإنّه لا ريب أيسر وأهون وأكثر احتمالاً، أما الجزع في المصيبة فهو يزيدها أولاً، وآخره غير محمود. فهذا الآخر خليطٌ من الندم والإثم. وهو ألم أوله وآخره؛ ولذا فهو يستحقّ منك هذه المتواليات الدلالية: القمع، والقرع والسلو.

وتؤدي المصادر في هذا النص دوراً واضحاً؛ فنجد أحد عشر مصدراً في حيزٍ لفظي صغير، وهي: احتمال، المضاضة، الصبر، الحزن، نكاية، الجزع، الندم، الإثم، القمع، القرع، السلو. وهي تعين في تقرير الحقيقة التي أراد المرسل تثبيتها في نفس المتلقّي، وتعطيها شكل القاعدة الثابتة لدلالتها على مطلق الحدث.

ومن التشكيلات كذلك ما يمكن أن نطلق عليه اسم "استراتيجية الملاذ"؛ فقد يكون طلب الصبر مباشراً من المعزى لكنّه يأتي مشفوعاً بتعليل، وهنا التعليل غالباً ما يدور حول فكرة تضاؤل الحزن مع مرور الوقت. ومنه ما قاله علي بن أبي طالب (ﷺ): "عليكم بالصبر، فإنّه به يأخذ الحازم، وإليه يعود الجازع"[54]. و"عليكم بالصبر" أمر خرج إلى غرض النصح والإرشاد، أما هذا النصح فهو طلب المرسل من المتلقّي التزام الصبر؛ لأنّه موئل الحازم والجازع معاً؛ فإذا كان الصبر هو ملاذك الأخير فلِم لا يكون خيارك الأول، فيوفر عليك عناء الجزع واللوعة؟. فالفكرة هي أن الجازع لا يستطيع احتمال تداعيات الجزع أبداً فيكون الصبر

هو الملاذ.

ونجد هذه الاستراتيجية كذلك فيما نقله الأصمعي "أن أخاً لمعمر بن سليمان مات، قال: فكنت أرغب إلى الله عز وجلّ أن أراه في نومي، فذكرت ذلك لشعيب بن الحبحاب فقال: إن الحزن ينضو عن ابن آدم، كما ينضو صبغ الثوب ولو بقي على ابن آدم قتله"(55).

وقد استعان المرسل (شعيب) بالتشبيه ليظهر كيفية تضاؤل الحزن يوماً بعد يوم، فهو ينضو عن ابن آدم كما يزول صبغ الثوب عنه بمرور الأيام، وهذا يعمل على تهوين المصيبة، فما سينتهي هو أمر مقدور عليه. وقد استعان في خاتمة الرسالة بـ "لو" سيدة الامتناع، وفيها تخويف ضمني من الإسراف في الحزن والألم، يقول: "ولو بقي على ابن آدم قتله"، لكنّه لا يبقى؛ فالله قد أنعم على الإنسان بنعمة النسيان، فلم لا يكون الصبر أولاً؟ إن مرور الأيام كفيل بتهوين المصيبة، أما الصبر فيعمل على تهوين المصيبة من غير اشتراط مرور الأيام.

والصبر المطلوب عندهم ينبغي أن يكون الصبر الذي مبعثه الإيمان والاحتساب وليس سلو المضطر، ووصفوا ذلك وصفاً قبيحاً. قال عبدالوهاب الثقفي: "أتاني ابن جريج بمكّة يعزيني عن بعض أهلي، فقال: إنّه منْ لم يسلُ أهله إيماناً واحتساباً سلا كما تسلو البهائم"(56). يريد أن يقول إن الإنسان يسلو بطبيعته مع مرور الأيام. وليست هذه هي السلوى المطلوبة؛ فالشرط في النص مرتبط بالعلّة: "إيماناً واحتساباً"؛ فالمصدر "إيماناً" مفعول له. والسلو موجود في الجزء الأول من الشرط: "من لم يسل"، وموجود في جواب الشرط: "سلا" لكنْ شتّان بينهما؛ فالسلو في الجزء الثاني "سلو البهائم" التي تنصرف إلى طعامها وشرابها ومشاغل حياتها، فهذه الأشياء كفيلة بالسلوى في أي مصيبة، وسلو البهائم يتحصل من غير إرادة، فهو أمر آلي تلقائي مرده إشباع الرغبات الآنية المحضة. أما سلوى الإيمان والاحتساب فهي مبنية على الإرادة واليقين والإيمان، وفيها يتجاوز المصاب الواقع المؤلم وتبقى عيناه معلقّة بالآخرة ورضى الله.

ومن اللفتات اللّغوية في النص أنّه صرح بلفظ المفعول به في جملة الشرط فقال: "من لم يسل أهله"، وفي جملة الجواب ترك فعل السلو مفتوحاً، ولم يقيده بمفعول؛ وهذا أدعى لتمثيل حدوث السلو من غير استحضار أي معنى، بينما في سلو الإيمان والاحتساب فأنت تستحضر مكانة أهلك أو من تحب ومع ذلك تصبر.

ويلاحظ أن رسائل التعزية في صدر الإسلام أخذت منحى الشدة في الحديث عن الصبر والتنفير من الجزع، لكن مع مرور الوقت أخذت تميل إلى التخفيف والتهوين. ومنه ما نقله ابن قتيبة قال: "وقرأت في كتاب تعزية: لا لوم على دمعة لا تملك أن تسفحها، ولا على ألم في القلب لا يُدْفع أن يظهر فيك، ولا عذر في سواهما مما أحبط أجرك، وأشمت عدوك، وضعف رأيك، ولم يُرْجِع إليك فائتاً، ولا إلى شقيقك بمكانه روحاً، ولا إلى من خلّف حفظاً. واعلم أن فرق ما بين ذي العقل وذي الجهل في مصيبتهما تعجل العاقل من الصبر ما يتأجل الجاهل"(57).

وهذه الرسالة تختلف - نسبياً – في لغتها عما سبق؛ فهي أقرب إلى الفن أكثر منها إلى التعزية الحقيقية، وكلماتها تميل إلى السهولة، بل إن طلب الصبر جاء هيناً ليناً، وكان في النصوص السابقة يأخذ المخاطَب بالشدة لحمله حملاً على الصبر. أما هنا فيبدأ بالرُخَص أو بالتخفيف؛ فيستخدم (لا) النافية للجنس، ليس في التنفير من الجزع وإنّما في نفي اللوم على من سفح دمعة لم يملك التحكّم فيها، وفي نفي أي ملامة على إظهار ألم القلب الذي لا يدفع، وجعل الاستثناء تالياً لهذا التخفيف.

أما عن مضمون هذه الرسالة فهو يركّز على الجزع، وهو يذكر تداعياته وآثاره، وكنّى عن الجزع بالاسم الموصول، ولم يسمه تهويناً لشأنه فقال: "ولا عذر فيما سواها مما أحبط أجرك". وجملة الخاتمة تبدأ بالفعل "اعلم"، وهو الأكثر استخداماً في رسائل التعازي، وهو – كما أشرنا – محاولة من المعزي رد المُعزى إلى دائرة الوعي، وأما المطلوب علمه فهو التفريق بين صنيع العاقل والجاهل إزاء المصيبة. فالعاقل يعتصم بالصبر؛ أي يعاجل المصيبة بالصبر، وأما الجاهل فيتعجل بالجزع. علماً بأن الصبر – رغماً – هو ما سيؤوب إليه الجازع؛ لأن الجزع لن ينجز له شيئاً مما يريد، فلن يرجع فائتاً ولن يوقف حزناً. ومرة أخرى يلجأ المرسل إلى أسلوب المقابلة والطباق لترجيح خيار الصبر، مع تركيزه في جملة الخاتمة على فعل المتلقّي، جزعاً أو صبراً، وليس على الصبر والجزع أنفسهما.

ومرد الاختلاف في لغة هذه الرسالة عن سابقاتها – نسبياً – أمران: الأول: العامل الزمني المرتبط بالبعد الفكري والديني والثقافي؛ فرسائل التعزية الأولى متّصلة بالرعيل الأول. من الصحابة والتابعين وبواكير العصر الأموي، وتأثّرهم الكبير بالقرآن الكريم والهدي النبوي. أما الرسائل المتأخّرة فتأثّرت برياح التداخل الحضاري الذي تلا حركة الفتوح، وخبت فيها المؤثّرات الأولى نسبياً، وكلّما تقدمنا زمنياً، سنجد أن رسالة التعزية قد تحولت عن سمْتِها المعتاد في بنيتها اللغوية والدلالية. والثاني: أنّها رسالة مكتوبة، وفي

الغالب يختلف المكتوب عن المنطوق، والكاتب فيه يملك أن يعيد النظر فيما كتبه مرات ومرات قبل أن يعتمده، فيما لا يملك المرتجل مثل هذا الخيار.

نخلص مما سبق إلى أن "الصبر" يشكّل العمود الفقري لرسالة التعزية، وقد عبروا عنه بطرائق مختلفة منها: أسلوب الاختصاص، والاستغراق، وأسلوب المقابلة، وأسلوب الشرط، وأسلوب التفضيل، وأسلوب التوكيد، وعبر البعد عن المباشرة، وعبْر ما أسميناه استراتيجية "تعاظم المصيبة"، ووُظف فيها العدد مع التفضيل، وأسلوب المباشرة مع التعليل عبر "الاستراتيجية الملاذ". وهم يعدون الصبر قيمة عليا ينبغي أن يتّسم بها المؤمن، وأن الصبر المطلوب هو صبر الإيمان والاحتساب لا سلو البهائم.

ونخلص كذلك إلى أن المرسل يستعين بتقنيات متنوعة لحمل الفاقد على الصبر، وهذا يعزز ما ذهب إليه اللّسانيون المحدثون من أن الباثّ مهما كان انتماؤه الاجتماعي، وأياً كان سلّم وعيه وإدراكه، لديه رغبة كبيرة في "حمل المخاطَب- لا على فهم محتوى رسالته فحسب- بل على تقمص ثوب التجربة المنقولة عبر الخطاب"[58]. وهو يستخدم في هذا من العناصر الضاغطة "ما يزيل عن المستقبِل حرية ردود الفعل؛ فالأسلوب بهذا التقدير هو حكم القيادة في مركب الإبلاغ؛ لأنّه تجسيد لعزيمة المتكلّم في أن يكسو السامع ثوب رسالته في محتواها من خلال صياغتها"[59].

التقنيات اللّغوية في تهوين المصيبة

إن من أهم أغراض رسالة التعازي "تهوين المصيبة" في نفس المتلقّي. ويستخدم المعزون في هذا تقنيات لغوية متعددة، بغية تهدئة نفس المصاب، وتقليص مساحة الألم في نفسه، مما يعظّم قدرته على الصبر والتماسك.

ومن النصوص السابقة جميعاً نلاحظ أن التقنية الأشيع لتهوين المصيبة وتهدئة النفس هي التركيز على عنصر الثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين في الآخرة، وهو عاملٌ قوي كفيلٌ بتهوين المصيبة، وجعل خيار الصبر مقبولاً أكثر من الجزع. وتبدو عملية تهوين المصيبة فيما يتّصل بالأبناء أمراً عسيراً؛ لما للأولاد من محل في نفوس والِديهم، ولذلك يركّز المعزون في هذا الجانب على الأجر العظيم للصبر على فقدهم في الآخرة، ويقارنون هذا بما كانه الأبناء لآبائهم في الدنيا، حيث هم في الدنيا زينة لكنّهم بلاء وفتنة. ومن ذلك ما عزى به موسى بن المهدي سليمان بن أبي جعفر عن ابن له. قال: "أيسرك وهو بلية وفتنة، ويحزنك وهو صلاة ورحمة"[60].

وفي هذا النص جمع المرسل بين تقنيتي الاستفهام والمقابلة، أما الاستفهام فهو للإنكار، كأنّه يقول: "كيف يسرك في هذه الحال ويحزنك في الحال الآخر؟! لا ينبغي ذلك أبداً". والمقابلة هي بين حال الولد لأبيه في حياة هذا الولد وحكم عليها المرسل بأنّها بلية وفتنة متأثّراً بالآية الكريمة: ﴿إنما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[61]، وبين حاله لأبيه بعد موته فهو صلاة ورحمة، ففرق شاسع بين البلاء والفتنة والصلاة والرحمة في مقابلها. والإنكار واقع على أن المسرة رافقت البلاء والفتنة، والحزن رافق الصلاة والرحمة، وما ينبغي هو العكس.

واستعان لإجراء هذه المقابلة بالطباق في: "يسرك ويحزنك" وبالجملتين الحاليتين: "وهو بلية وفتنة"، "وهو صلاة ورحمة" وهما جملتان متناظرتان تركيبياً، وجاءت الجمل الحالية اسمية دالّة على الثبوت، وهو أدعى إلى تقرير الحقائق. ووصْفُ الابن بالمصدر أدعى إلى ثبوت ذلك فيه؛ فهو البلية والفتنة أنفسهما، وهو الصلاة والرحمة أنفسهما. ويشبه هذا ما عزى به رجلٌ موسى بن المهدي نفسه عن ابن له، قال: "كان لك من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات"[62]. ولعلّ في إظهار محل الابن بعد الموت، وجلبه للصلاة والرحمة والأجر، وكونه من الباقيات الصالحات تهويناً للمصيبة في نفس الوالد، وهي – لا ريب – مصيبة كبيرة.

وفي هذا الضرب من تقنيات تهوين المصيبة، خاصة ما يتّصل بالأبناء تبرز المقابلة بين الصبر والجزع، والدنيا والآخرة، والوزر والأجر، والحزن والمسرة، والسرور المؤقّت والسرور الدائم. ومنه ما عزى به رجلٌ رجلاً قال: "إن من كان لك في الآخرة أجرا خير لك ممن كان لك في الدنيا سروراً"[63]. والابن سرور لأبيه في الدنيا، وفي صبر أبيه على موته أجر له في الآخرة، وكأنّه يقول: إن موت ابنك مع صبرك على فقده خير من بقائه حياً مع إدخال السرور المؤقّت على نفسك، فالأجر مسرة مطلقة ليس بعدها حزن، ومسرة حياة الولد مؤقّتة نسبية محدودة. واستخدم هنا أسلوب التفضيل مع التوكيد، وجعل (كان) في شطري التفضيل، كأن حدث الآخرة حصل وانقضى كما انقضت المصيبة، وذلك لتهوين فترة الفراق، وما يترتّب عليها من ألم، فكأن الدنيا والآخرة تداخلتا زمنياً. فأعطت (كان) نوعاً من التقريب والتحقيق؛ فجعل أجر الآخرة كالمتحقّق الثابت، ليعينه على احتمال ألم المصيبة في الدنيا.

ومن التقنيات المستخدمة في تهوين المصيبة أن يذكر للمتلقّي أن الموت حق على الجميع، وهذا يهون المصيبة

لإحساس المتلقّي بأنّه ليس وحده في هذا. ومنه ما عزى به رجلٌ عمر بن عبدالعزيز عند وفاة ابنه عبدالملك قال[64]:

تعـز أميـر المؤمنين فـإنّه
لما قـد ترى يغذى الصغير ويولد
هـل ابنك إلاّ من سلالة آدم
لكل على حـوض المنية مـورد

وهي رسالة تعزية شعرية، لكنّها لا تختلف في بنائها ومضمونها عن رسائل التعازي النثرية. و(هل) هنا يراد بها النفي، والتركيب كلّه للتقرير والتوكيد؛ لأنّه تحول بـ "هل" إلى القصر الذي يفيد التوكيد، والمعنى: "ليس ابنك إلاّ من سلالة آدم". واستعان المرسل بـ "ال" الجنسية في كلمة "الصغير" الدالّة على الاستغراق، للدلالة على أن البشر جميعاً ينتظرون الموت وليس ابن المتلقّي حسبُ؛ فكلّ صغير ومولود يصير بعد ذلك إلى الموت في فترة ما من حياته. كما استعان كذلك بلفظة "كلّ" وما تدلّ عليه منه تسوير وإحاطة للغرض نفسه؛ فالموت قدر كلّ حي.

ومن أمثلة هذه الوسيلة أيضاً ما أرسله الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبدالله بن الجد إلى الوزير الفقيه أبي القاسم الهوريني يعزيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال[65]:

لابـد مـن فقـد ومن فاقـد
هيهات ما في الناس من خالد

وقد عبر عن حتمية الموت على العباد جميعاً بعدد من التقنيات: الأولى اسم الفعل الماضي "هيهات"، ومعناه بعُد. ثم بـ (ما) النافية في صدر الجملة، وجعل المبتدأ كلمة "خالد" مسبوقة بـ "من" الزائدة التي تفيد توكيد النفي، والخبر "في الناس". والتركيب بهذه الصورة يفيد استغراق النفي وذلك بقوله: "ما في الناس من خالد"، ولو قال: "ما في الناس خالد" لظن المتلقّي أن بعض الناس قد يفلت بالخلود، لكن (من) الزائدة تقضي على أي أملٍ. لكن موت الناس لا يحصل دفعة واحدة فلا بد أن يوجد فاقد ومفقود، وعبر عن هذا بـ "لا" النافية للجنس: "لابد من فقد ومن فاقد".

وفي هذا المعنى عزى أبو تمام مالك بن طوق بقصيدة منها[66]:

أمالك إن الحـزن أحـلام حـالمٍ
ومهما تَدم فالحزن ليس بدائم
أمالك إفـراط الصـبابة تـارك
جنا واعوجاجاً في قناة المكارم
تأمل رويداً هـل تَعـدن سالمـاً
إلى آدم أم هلْ تعد ابن سـالمِ
متى تُرع هذا الموتَ عيناً بصيرةً
تجد عادلاً منه شبيـهاً بظالـم
فمـن قبـلهِ ما قد أُصيب نبينـا
أبو القاسمِ النور المبين بقاسم

ونجد المعنى الذي نتدارسه في قوله: "هل تعدن سالماً إلى آدم أم هل تعد ابن سالم". فكلّ الناس ليس فيهم سالم منذ آدم أو ابن سالم؛ فالموت لا يفرق بين عادل وظالم، ولا يستثني أحداً، ومن قبل أُصيب النبي (ﷺ) بالقاسم فصبر واحتسب. وقد استعان المرسل لإيصال هذه الرسالة بأدوات لغوية عديدة منها: توالي النداء: أمالك؟ أمالك؟ وفيها طرقات متتابعة تنبه المتلقّي. ومنها فعل الأمر "تأمل" وصلته بالوعي والعقل والتدبر. ومنه الشرط: "ومهما تدم فالحزن ليس بدائم"، "ومتى ترع تجد". ويقول في هذا الشرط: إنّه متى نظر للموت بعين بصيرة فسيخلص إلى أنّه لا يستثني أحداً، ثم ضرب الأمثلة بمن مضى للتأسي والعِبْرة. والتوكيد: إن الحزن أحلام حالم.

ومن هذه التقنيات كذلك استحضار مصيبة المسلمين بفقد النبي (ﷺ) ومنه ما ورد عن دخول درواش بن حبيب العجلي على جعفر بن سليمان، يعزيه بأخيه محمد بن سليمان فلما نظر إليه جعفر قال: "إن كان عند أحدٍ فرج فعند دِرْواش. فسلّم ثم قال: أيها الأمير، التمس ثواب الله بحسن العزاء، والشكر لأمر الله، واذكر مصيبتك في نفسك تنسك فقد غيرك، واذكر قول النبي (ﷺ): "من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بي". واذكر قول الله عز وجل لنبيه(ﷺ): ﴿**إنك ميتٌ وإنهم ميتُون**﴾[67]. وقوله تعالى: ﴿**وما جعلْنَا لِبشَرٍ من قبْلِك الخُلْد**﴾[68]وخذ بقول عبدالله بن أراكة في أخيه عمرو:

تفكّر فإن كان البكـا رد هالكـا
ولا تبـك ميتاً بعـد ميت أجلّه
على أحد فاجهد بكاك على عمرو
علي وعباس وآل أبي بكر[69]"

وهذه الرسالة كانت محلّ انتظار من المتلقّي بشغف، وهي تمثل الفرج بالنسبة إليه، فهو يعد نفسه محتجزاً في كرب الحزن، ويريد من يسلّي عنه أو يهون عليه مصيبته. وقد ضمن المرسل رسالته حديثاً وقرآناً وشعراً، ليكون ذلك أدعى في التأثير في المتلقّي واستجابته. وهي تشبه سابقاتها من حيث اعتمادها على الخطاب المباشر، وابتداؤها بالنداء، ثم أفعال الأمر المتّصلة بالعقل: "التمس، واذكر، واذكر".ويهمنا في هذه المفردة تقنيات تهوين المصيبة في النص.

وأولها: ترغيبه بالثواب المتحصل بالصبر، وتوسل إليه بفعل أمر مباشر خرج إلى غرض النصح والإرشاد: "التمس ثواب الله بحسن العزاء". **وثانيها**: تذكيره بأنّه نفسه سيموت،

وسيحاسب على كلّ ما كان منه. والتفكير بهذا كفيلٌ بإلهائه عن مصيبته بفقد أخيه، وتوسل إليه أيضاً بفعل أمر مباشر خرج إلى غرض النصح والإرشاد: "واذكر مصيبتك في نفسك تنسك فقد غيرك". و"تنسك" هذه مهمة جداً في هذا السياق. ونحن نتحدث عن تهوين المصيبة. **وثالثها**: تذكيره بأن أحب خلق الله إلى الله، وهو النبي (ﷺ)، قد التحق بالرفيق الأعلى، وفي هذا تركيز على نسبية المصائب؛ فإن فقد النبي أعظم المصائب، فتكون مصيبة هذا الرجل بفقد أخيه أهون منها، وتوسل إلى هذا أيضاً بفعل أمر مباشر: "واذكر قول النبي صلّى......". **ورابعها**: تذكيره أن العباد جميعهم على هذا الطريق؛ فتعميم المصاب كفيل بتهوين المصيبة "إنّك ميت وإنّهم ميتون".وتوسل إليه أيضاً بفعل أمر مباشر: "واذكر قول الله" فهذا حتم وقضاء لا تبديل عليه ولا مفر منه". فقد مضى النبي (ﷺ)، وعلي، وعباس وآل أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً. **وخامسها**: التذكير ببدهية أن الجزع لا يرد هالكاً، وتوسل إليه بفعل أمر مباشر أيضاً هو: "وخذ بقول عبدالله بن أراكة...". وليس مصادفة أن ابن أراكة هذا قد بدأ رسالته بفعل أمر أيضاً، هو: "تفكّر". واستعان بالنهي: "ولا تبك".

إن طبيعة التركيب اللّغوي هي التي ترسم الدلالات "من خلال التكوينات المتنوعة للعلاقات القائمة بين المفردات، وبعد ذلك فإن الدلالات النّاتجة تقوم على جملة علاقات تستمد قوامها من الموقف الإيصالي نفسه"[70].

ومنه أيضاً ما ورد عن ابن السماك قال: "جلسنا ننتظر جنازة لتخرج، إذ مر بنا أعرابي فوقف علينا فسلّم، ثم قال: "إن أعظم المصيبة مصابكم برسول الله (ﷺ). عظّم الله أجركم ورحم ميتكم". قال ابن السماك: "فما يخيل إلي أنّي سمعت كلماتٍ أوجز منهن، إنّه صدر كلامه برسول الله (ﷺ) وعزانا، وترحم على ميتنا في كلمة واحدة"[71]. هذه رسالة تعازٍ ناجحة – من وجهة نظر أحد المتلقّين- ومرد نجاحها أنّها على إيجازها جمعت المعاني المطلوبة في رسالة العزاء، وقد رتّب الرجل عناصر الرسالة بحيث بدأ بأعمقها أثراً في تهوين المصيبة، وهو مصاب الأمة بالنبي (ﷺ)؛ فكلّ مصيبة بعده هيّنة. ثم ثنّى بالدعاء لأهل الميت بالأجر العظيم، وفيه إشارة إلى الصبر لأنّه لا أجر من غير صبر. ثم دعا للميت بالرحمة، والدعاء بلسم لجروح النفوس. ولا ريب أن ترتيب المعاني في النص واختيار الجمل يخضع لاعتبارات شتّى، من بينها: طبيعة المرسل، وطبيعة المتلقّي، وغرض الخطاب، وسياق الحال. أو كما يقول (فاولر): "إن أنماط الجمل التي ترد في الخطاب وترتيبها يتعلّقان تعلّقاً كبيراً بالأحوال التي يستعمل فيها الخطاب"[72].

ومن هذه التقنيات استخدام التمثيل، وذلك من خلال تشبيه غياب الموت بغياب السفر أو نحوه في محاولة من المرسل أن يقرب فهم حالة الغياب وتهوينها في النفس مما يعين على الصبر. ومنه ما أورده المبرد أن رجلاً قد جزع على ابن له فشكا ذلك إلى الحسن بن أبي الحسن، فقال له الحسن: هل كان ابنك هذا يغيب عنك؟ قال: نعم، كانت غيبته أكثر من حضوره. قال: فأنزلهُ غائباً. فإنّه لم يغب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه الغيبة"[73]. ومن غير هذا الإسناد أنّه قال: "فأنزله غائباً عنك فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه. قال: يا أبا سعيد قد هونت من وجدي على ابني"[74].

وقد استعان الحسن بالاستفهام ليوصل إليه الحقيقة "هل كان...." و(هل) هذه للتصور. وغياب ابنه لفترات معينة أمر يستطيع تصوره؛ فهو واقع كائن. ثم انتقل به إلى مرحلة التصديق: "فأنزله غائباً". وأضاف إليها جرعة من التحفيز والتقوية عبر حديثه عن الأجر؛ فغياب الولد السابق لم يكن الأجر حاضراً فيه، أما هذه الغيبة فللوالد فيها لقاء صبره أجر كبير. واستخدام المنطق والعقل واضح في النص. وانظر ما قاله: "فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه". وكأنّه يريد للمتلقّي أن يتلبس حقاً دور الأب المنتظر لإياب ولده من الغيبة، فإذا لم يحضر الولد – ولن يحضر – انتقل الوالد إليه حين يموت هو أيضاً. واستعان بأدوات لغوية تقرب الافتراض من أن يكون حقيقة، مثل: "الفاء" في المواضع التالية: "فأنزله غائباً"، و"فإنّه لم يغب عنك غيبة"، و"فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه". والشرط الذي استخدمه هنا عجيب، فالجزء الأول منه مستحيل الوقوع. أما الجزء الثاني فهو محتّم الوقوع، ولذلك قدم له بـ (إن) التوكيدية: "فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه". ولذلك أيضاً استخدم مع فعل الشرط المضارع (لم) فقال "لم يقدم"، وجواب الشرط جاء ماضياً ثابتاً واقعا "قدمت عليه" وهذا النص يشكّل رسالة لغوية ناجحة؛ فالنص قد حقّق غرضه، وأثره بدا واضحاً، عبر عنه المتلقّي بقوله: " يا أبا سعيد قد هونت من وجدي على ابني". و"قد" في هذه الجملة دليل تحقيق الغرض.

وعلماء النص يهتمون بدراسة التقنيات اللّغوية التي يستخدمها المرسل لتحقيق الأثر المطلوب من الرسالة اللغوية، بل إنّهم يبحثون عن أي أجزاء النص هو الذي أحدث هذا الأثر[75]. وترى الباحثة أن نجاح النص يأتي من أجزائه جميعاً، ثم تكون له نقطة مركزية يتكثّف فيها هذا النجاح، ويتوهج فيها الأثر. وفيما يتّصل بهذا النص فإن قوله: "فَأَنْزِلْهُ غائباً، فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه" يشكّل هذه النقطة المركزية.

ومن التقنيات المستخدمة في تهوين المصيبة، وتجعل من رسالة العزاء رسالة ناجحة أن يذكر المعزي في الفقيد أو في أهله وصفاً أو خصالاً تهون عليهم الفقد. ومن هذا أنّه بعد استشهاد زيد بن الخطّاب (ﷺ) قال عمر بن الخطّاب (ﷺ) لمتمم بن نويرة: "أنشدني مرثّيتك لأخيك فأنشد:

لعمري وما عمري بتأبين هالك

ولا جزعاً مما أصاب فأوجعـا

حتّى أتى على آخرها. فقال عمر: لو كنت أحسن أن أقول كما قلت لبكيت زيداً. فقال متمم: ولا سواء يا أمير المؤمنين. لو صُرع أخي مصرع أخيك ما بكيته. فقال عمر: ما عزاني أحد عن زيد بأحسن مما عزيتني"[76]. وهذه التقنية تتكرر في موضوع الشهادة، حيث تعد الشهادة في المجتمع المسلم قيمة عليا، والمعزي هنا (متمم بن نويرة)، وهو فاقد أيضاً، استخدم النفي ليكفّ رغبة عمر ببكاء أخيه. أما النفي فواقع على احتمال التشابه بين الفقدين؛ فمالك بن نويرة الذي رثاه متمم مات على الشرك، أما زيد بن الخطّاب فاستشهد على الإسلام في المعركة يقاتل في سبيل الله. ثم استخدم الشرط بـ "لو" سيدة الامتناع: "لو صرع أخي مصرع أخيك ما بكيته"، وجاء جواب الشرط منّفياً. وأخوه لم يصرع مصرع أخي عمر، ولذلك كان بكاؤه ورثاؤه، أما عمر فلماذا يبكي، وأخوه شهيد أبلى البلاء العظيم في موقعة اليمامة؟ وكأنّه يقول "ليس لمثلك أن يبكي، لمثلك أن يفخر بمثل هذا الأخ العظيم". لكن الصياغة اللغوية التي اختارها زيد كانت أبلغ؛ فـ "لو" وفي جوابها (ما) النافية، والمفعول المطلق المبين للنوع "مصرع أخيك"، كلّها كانت ناطقة بجلال المصرع الذي لقيه زيد، وعدم تناسب البكاء مع هذا الجلال. إنّه جدير بالفخر والإكبار وليس البكاء.

وفي هذا عزاء أي عزاء؛ ولذلك عبر عمر عن نجاح متمم في رسالة عزائه بالقول إن أحداً لم يعزه بأحسن من هذا العزاء. وعبر عن هذا النجاح بما النافية مع تنكير "أحد"، مما يدلّ على تعميم النفي، ثم قطع النفي باسم التفضيل "أحسن" متبوعاً بـ "مما عزيتني" ليقول له: رسالة عزائك هي الأفضل، ولا ريب أن كلمات متمم نزلت على عمر برداً وسلاماً، وأنّه استبدل عنده الرغبة بالبكاء بالشعور بالفخر والإكبار، وأي عزاء خير من هذا؟

ومن التقنيات التي يستخدمها المعزون في تهوين المصيبة ما يعرف بالتأسي، وكتب التعازي وأبوابه تحفل بالكثير من القصص التي تجلّد فيها أصحابها أمام مصيبة الموت، يذكرونها لتكون مدعاة للتأسي والاقتداء في مجال الصبر. ومنها صبر النبي (ﷺ) واحتسابه عند فقد ابنه إبراهيم[77]، ومنها الحديث عن احتضار النبي (ﷺ) واختياره الرفيق الأعلى[78]. وما أوردوه عن قصص وفاة كبار الصحابة[79]. وكذلك ما أوردوه عن تجلّد أسماء بنت أبي بكر وابنها عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما[80]، وغيرهم. ولأنّنا غير معنيين بالوقوف على هذه القصص نفسها، وإنّما على لغة الخطاب فيها فسنتخير منها بعض النصوص، مع الإشارة إلى أن أكثر قصص التأسي التي ينقلها الرواة تتّصل بموت الولد؛ لأنّه أكثر فقد يؤلم النفس؛ فالصبر أمامه هو الصبر.

ومنها ما رواه المبرد عن سفيان بن عيينة قال: "رأى سعيد بن جبير ابنه يطوف بالبيت فقال: هذا أعز الخلق علي، وما شيء أسر إلي من أن يكون في ميزاني"[81]. ويلفتنا في هذا (ما) المشبهة بليس المتبوعة بالنكرة المبهمة "شيء"، وهو وجه من استغراق النفي وتعميمه؛ فليس شيء أكثر جلباً للمسرة من موت هذا الابن واحتسابه، ثم يكون هذا الاحتساب في ميزان أعماله يوم القيامة، وذلك إشارة إلى ما أعده الله من أجر لمن يفقد حبيباً (خاصة الابن) ثم يصبر. واختياره كلمة "شيء" وما فيها من إبهام مفتوح غير محدد أبلغ في الدلالة على عظم سروره.

وقد استعان المرسل باسم التفضيل مرتين في هذه الرسالة. في الجملة الأولى: "هذا أعز الخلق إلي"، وقد بدأ بها لئلا يظن السامع أنّه يقول ما يقوله كراهية لابنه أو لضعفٍ في محبته. واستخدامه المبتدأ اسم إشارة أبلغ؛ ذلك أنّه من أقوى المعارف، لدلالته على الحضور، ليقول: هذا هو بعينه وليس أحداً آخر، ثم هو يطوف بالبيت الحرام وهو مشهد محبب للوالد يُسْتَغْرَبُ معه قول ما سيقول لاحقاً؛ فما بين الرجل وابنه حب صراح ومعزة خالصة؛ عبر عنها باسم التفضيل "أعز" مضافاً إلى معرفة، مما يدلّ على الاستغراق فهو أعز الخلق كلّهم على أبيه، ومع ذلك فليس شيء أسر من احتسابه عند موته ونيل أجر الصبر عليه. وفي الجملة الثانية جاء اسم التفضيل خبراً لـ (ما) المشبهة بليس "ما شيء أسر"، والسرور تفضيلاً في هذا السياق عجيب؛ إذ كيف يمكن لوالد أن يرى فقد الابن مع الاحتساب أكثر شيء جلباً للمسرة؟ ولكن هذا هو مكمن ورود هذه القصة في سياق التأسي.

ونقل المبرد أن علي بن الحسين "سمع واعية من بيته وهو في مجلسه وعنده جماعة، فنهض إلى منزله فسكّتهم، ثم خرج إلى مجلسه، فقالوا له: أمن حدثٍ كانت الواعية؟ قال: نعم، ابن لي. فعزوه وتعجبوا من صبره. فقال: إنّا أهل بيت نطيع الله جلّ ذكره فيما نحب ونكره ونحمده؛ فإذا نزل مكروه حمدنا واحتسبنا"[82].

وفي السياق الثقافي لهذا النص، نستحضر أهل البيت ومكانتهم في النّفوس؛ فهم يشكّلون المثل الأعلى في التأسي والاقتداء، ورد هو صبره وسلوكه هذا إلى انتسابه لهذا البيت، فهو عُرْفٌ جارٍ فيهم، وهو خلقٌ مستحكِم فيهم، ولن يخرج هو عن هذا الإطار. ولخّص موقفه من المصيبة بصيغة الجمع: "فإذا نزل مكروه حمدنا واحتسبنا" وكأنّه يقول: "كلّنا كذلك، وأنا واحد منهم". ويتردد الجمع في قوله: "إنّا"، و"نطيع"، و"نحب"، و"نكره" ، و"نحمد". وصيغة الجمع هذه لها دلالتها في السياق الثقافي والاجتماعي كما أسلفنا.

ومنه ما أورده المبرد "أنّه مات بالطاعون سبعة بنين لصدقة بن عامر المازني في يوم واحد، فدخل فوجدهم قد سجوا جميعاً. فقال: اللهم إنّي مسلم مسلم"[83]. وهو موقف واضح في حسن التصبر عند الصدمة الأولى، دلّت عليه الفاء التعقيبية في: "فقال"، وفي الجملة "فوجدهم قد سجوا جميعاً"، مما يدلّ على سرعة احتسابه وتصبره. وقوله: "اللهم" هو انتقال مباشر من عالم المصيبة إلى عالم الاحتساب عبْر التوجه مباشرة إلى الله عز وجل من غير أداة. والميم في آخر "اللهم" تعبير عن استشعار عظمة الله سبحانه وتعالى في هذا الموقف العصيب. أما (إن) متّصلة بياء المتكلم: "إنّي" فهي رد لنفسه بالقوة إلى دائرة اليقين الذي قد يزلزله موت سبعة بنين دفعة واحدة. وتكرار "مسلم" مرتين يصب في الوارد نفسه؛ فهو يؤكد لنفسه أنّه مسلم، ويؤمن بأن الحياة والموت كليهما بلاء مبين ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوتَ وَالْحيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحسن عملا**﴾[84]. فالتوكيد يجابه به المصاب ما يمكن أن يتسرب إلى نفسه في مثل هذا الموقف الجليل؛ فيكرر إسلامه لإعادة ذاته إلى ثوابتها وليؤوب بنفسه إلى توازنها.

ومن صور التأسي ما نقل أن "معاوية بن أبي سفيان (ﷺ) خرج يوماً يسير معه عبدالعزيز بن زرارة الكلابي، وكان مقدماً في فهمه وأدبه إلى شرفه ومنصبه. فقال له: يا عبدالعزيز؛ أتاني نعي سيد شباب العرب، فقال: ابني أم ابنك؟ قال: بل ابنك. قال: للموت ما تلد الوالدة"[85]. وفي الصورة موضعان جديران بالوقوف عندهما: **أولهما**: أن الفقيد ابن، وهو ليس ابناً عادياً، بل له مزايا جعلت معاوية يصفه بـ "سيد شباب العرب"، وهما مسألتان تصعبان فقده والصبر عليه. **وثانيهما**، أن رد الفعل المباشر للأب الفاقد هو الصبر والاحتساب، وتعبيره عن هذا بأن هذا هو قدر بني البشر جميعاً. وجاء ذلك في جملة اسمية قصيرة، وظّف فيها التقديم والتأخير فأصل الجملة: "ما تلد الوالدة للموت". وقدم الموت لأنّه سيد اللحظة. وجاء بالمبتدأ المتأخّر اسماً موصولاً (ما) مبهماً، وهو يدلّ على استغراق المواليد الذين تلدهم الوالدات أياً كانوا. وفي الجملة ملفت آخر هو الجمع بين حدثي الموت والولادة في حيزٍ لفظي ضيق عبر عن الموت بالمصدر الدال على مطلق الحدث، وعبر عن الولادة بالمضارع "تلد" دلالة على التجدد؛ فكلّ حدث ولادة متجدد مآله الموت، وهذه حقيقة ثابتة. وهذه الجملة تبسطها هذه الحقيقة على هذا النحو الخالي من المشاعر – تقريباً – ضرب من التسليم من جانب، وضرب من التجلّد من جانب آخر، وضرب من التعالي على الألم من جانب ثالث، وهذا الثالوث هو موضع التأسي.

ومن تقنيات تهوين المصيبة "الدعاء". وقد مر بنا عدد من رسائل التعازي التي تشتمل على الدعاء. وهو أسلوب متوقّع في مثل حادثة الموت ولقاء الله. وأما الدعاء فيقوم – بالغالب – على طلب الأجر وتعظيمه لأهل الفقيد والرحمة للفقيد، وقد يشتمل على طلب العوض والخلف من الله عز وجل بأحسن مما فقدوا. وقد تقوم رسالة التعزية كلّها على الدعاء، وقد يكون الدعاء جزءاً منها. ومنه ما جاء في تعزية أحد الكتّاب: "أسأل الله أن يسد بك ما ثلمت الأيام من مكانه، ويعمر ما أخلت من مشاهده وأوطانه، حتّى لا يعفو الدائر، وأن يستقبل لكم أيامكم بأحسن ما أمضاها لمن مضى منكم، فيجعلكم الخلف الذي لا وحشة معه، ولا وحشة عليكم، ويتولاّكم ويتولاّنا فيكم بما هو أهله ووليه"[86].

والنص كلّه يقوم على الدعاء، وفيه يعظّم المعزي شخص المصاب ويركّز عليه، ويدعو الله أن يسد به ما انثلم بسبب الفقد، ويبدو أن الخطاب لأحدٍ من عِلْية القوم، وأن المعزي صنعته الكتابة. وصيغة الخطاب تتّخذ شكلاً رسمياً، وفيها لون من الفن الكتابي؛ ففيها تطابق، ومنه: (يعمر وأخلت) و(يسد وثلمت)، وجناس بين (أمضى، ومضى)، ولون من السجع بين: (أهله، ووليه)، مما يدل على أن هذه الرسالة متأخّرة زمنياً عن العصر الإسلامي الأول. والخطاب فيها هين لين. وهذا مختلف – نسبياً – عن رسائل صدر الإسلام.

ومن تقنيات تهوين المصيبة التي يتّبعها المعزون ما يمكن أن نسميه بالمشاركة الوجدانية، وتقوم على إشعار المصاب بأن المعزي يتشارك معه ألم المصاب. ومنه رسالة التعازي التالية: قال ابن قتيبة: "قرأت في كتاب: "مصيبتك لي مصيبة، وما نالك من ألمها لي موجع، ولو كان في الوسع أن أعلم كنه ما خامر قلبك من ألمها حملت مثله على نفسي، فإنّي أحب أن أكون أسوتك في كل سار وغام، وألاّ أتمتع بأيام عُمومِك، ولا أقصر فيها عن مقدار حالك"[87]. ويمكن ملاحظة هذه المشاركة التي يبديها المعزي تجاه المصاب في حركة

الضمائر في النص؛ ففي كل جملة نجد المرسل والمتلقّي معاً. وانظر إن شئت:

"مصيبتك لي مصيبة"	الكاف في "مصيبتك" للمتلقّي. والياء في "لي" للمرسل.
"ما نالك من ألمها لي موجع"	الكاف في "نالك" للمتلقّي. والياء في "لي" للمرسل.
"أن أعلم كنه ما خامر قلبك حملت مثله على نفسي".	الكاف في "قلبك للمتلقّي. وأنا في "أعلم"، والتاء في "حملت"، والياء في "نفسي" للمرسل.
"فإنّي أحب أن أكون أسوتك في كل سار وغام"	الكاف في "أسوتك" للمتلقّي، والياء في: "فإني"، وأنا في "أحب" و"أكون" للمرسل.
"وألاّ أتمتّع بأيام غمومك"	الكاف في "غمومك" للمتلقّي. وأنا في "أتمتّع" للمرسل.
"ولا أقصر فيها عن مقدار حالك"	الكاف في "حالك" للمتلقّي. وأنا في "أقصر" للمرسل.

فحركة الضمائر تشي بما يرغب أن يعبر عنه هذا المعزي من المشاركة تجاه صديقه. أما الشريك الثالث لهما في الحضور النصي فهي المصيبة، وكأنّهما يتشاطرانها. نجدها عنصراً إشارياً تكرارياً بلفظها في اللفظين: "مصيبتك"، و"مصيبة". ويرتبط بها العناصر الإحالية التالية: "ألمها" (وردت مرتين)، و"مثله"، و"فيها". وقد أشار جون لاينز إلى أهمية الضمائر في الكشف عن صيغة العلاقة بين المرسل والمتلقّي[(88)].

وهذه الرسالة أيضاً تنتمي إلى زمن متأخّر عن صدر الإسلام؛ فلرسائل التعزية في ذلك العصر روحها الخاصة التي رأيناها في النصوص السابقة. وامتازت بأن فيها شدة وقوة من جانب المعزين تجاه المخاطَبين، رغبة منهم في حملهم على الصبر حملاً، واحتكاماً لأوامر الله في القرآن الكريم.

إن هذا الربط بين التركيب اللّغوي للنص وروح العصر هو انعكاس لمقولة: "إن الكلمات معاقل الفكر"[(89)]؛ ذلك أن للكلمة "قدرة ذاتية على الدلالة، وعلى اللّفظة والعبارة ينعقد وجود الفكر في العالم المحسوس، وهما بمثابة شعاره وجسده، وقد صح وجود ما يعرف عند النّفسيين بالتصور اللّغوي أو التصور اللفظي، الذي يشبه أن يكون تجربة داخلية مركزية، أخص خصائصها كونها لفظية، يصير بها الصوت المسموع حقيقة من حقائق اللّغة[(90)]".

الخاتمـة

تقدم رسالة "التعازي" في التراث العربي خطاباً مهماً جديراً بالدرس في مسألة وجودية تمس حياة الإنسان بصورة دائمة ومؤثِّرة هي "الموت". وقد تناول هذا البحث الطرائق التي تسلكها اللّغة في التعبير عن التعاطف الإنساني وحمل المصاب الفاقد على الصبر. كما يتناول التقنيات اللّغوية التي يستخدمها المعزون في تهوين المصيبة.

وقد خاص هذا البحث إلى أن العرب، منذ الجاهلية وحتّى بواكير العصر العباسي الأول، قد مالوا إلى الشدة والحزم في رسالة العزاء. وكانوا ينفّرون من الجزع وعدم الصبر بصورة واضحة، ويعدون الصبر من الخصال الكريمة، ويعدون الجازع خارجاً عن الإطار المقبول في العرف الاجتماعي. أما رسالة التعازي بعد هذه الفترة فقد مالت إلى أن تكون مكتوبة غالباً، وفيها نوع من التعاطف واللين في الخطاب، وكادت لهجة الشدة تختفي، لخفوت المؤثِّرات الأولى التي كانت تحكم موضوع الصبر والجزع.

ويوصي البحث بالاستمرار في دراسة المادة اللسانية المتوافرة في التراث العربي في الموضوعات المختلفة؛ مما يمكّن من إعادة قراءة الأنساق الثقافية والاجتماعية التي صدرت عنها.

الهوامش

(1) من هذه الدراسات التي تناولت فن الرثاء: أبو الخير، شعر رثاء النفس حتّى نهاية العصر العباسي. وباقازي، رثاء النفس في الشعر العربي، ط1، وجور، رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ط1، والخطيب، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ، ط1.

(2) المدائني، كتاب التعازي.

(3) المبرد، التعازي والمراثي.

(4) ابن قتيبة، عيون الأخبار، المجلّد الثالث، ص(56- 73).

(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص(183- 264).

(6) الصاحب بن عباد، رسائل الصاحب بن عباد، الباب

العاشر، ص(136- 151).
(7) الصابي، غرر البلاغة، الباب التاسع، ص(186- 207).
(8) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، المجلّد الرابع، الباب التاسع عشر، ص(193- 327).
(9) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 2007، المجلّد الخامس، الباب الثاني، ص (161- 226).
(10) العبد، النص والخطاب والاتّصال، ص279.
(11) الغانمي، اللّغة والخطاب الأدبي، ط 1، ص(111- 112).
(12) عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ص 78.
(13) نفسه، ص 78.
(14) عبد البديع، التركيب اللّغوي في الأدب، ط1، ص 104.
(15) عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ص 28- 29.
(16) عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص69.
(17) نفسه، ص69.
(18) ابن منظور، لسان العرب، مادة (عزا).
(19) المبرد، التعازي والمراثي، ص9.
(20) النويري، نهاية الأرب، ج5، ص162.
(21) نفسه، ج5، ص162.
(22) المدائني، كتاب التعازي، ص2. والآية من سورة آل عمران، الآية (185).
(23) المدائني، كتاب التعازي، ص58.
(24) نفسه، ص14.
(25) نفسه، ص15.
(26) ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، د. ت، ص155.
(27) المبرد، التعازي والمراثي، ص119.
(28) المدائني، ص58.
(29) نفسه، ص23.
(30) نفسه، ص25.
(31) نفسه، ص24.
(32) المبرد، التعازي والمراثي، ص45، والآية من سورة النحل، آية (96).
(33) المبرد، التعازي والمراثي، ص24.
(34) المدائني، كتاب التعازي، ص 15.
(35) منصور، الموت والمغامرة الروحية من الأسطورة إلى علم الروح الحديث، ص115.
(36) انظر: عبد البديع، التركيب اللّغوي للأدب ، ص56.
(37) المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط3، ص 36.
(38) الغانمي، اللغة والخطاب الأدبي، ص95.
(39) المدائني، كتاب التعازي، ص37.
(40) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص11.
(41) المدائني، كتاب التعازي، ص63.
(42) بدوي، الموت والعبقرية، ص15.
(43) المدائني، كتاب التعازي، ص66.
(44) نفسه، ص63.
(45) المبرد، التعازي والمراثي، ص90.
(46) انظر: المدائني، كتاب التعازي، ص89.
(47) نفسه، ص65.
(48) نفسه، ص67.
(49) نفسه، ص86.
(50) نفسه، ص68.
(51) نفسه، ص69.
(52) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص59.
(53) المدائني، كتاب التعازي، ص87.
(54) المبرد، كتاب التعازي والمراثي، ص10.
(55) نفسه، ص118.
(56) نفسه، ص118.
(57) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص57.
(58) المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 81.
(59) نفسه، ص81.
(60) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص59.
(61) سورة الأنفال، آية (28).
(62) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص59.
(63) المدائني، كتاب التعازي، ص70.
(64) المبرد، كتاب التعازي والمراثي، ص32.
(65) النويري، نهاية الأرب، ج5، ص169.
(66) نفسه، ج5، ص211.
(67) سورة الزمر، الآية (30).
(68) سورة الأنبياء، الآية (34)
(69) المبرد، كتاب التعازي والمراثي، ص(139- 140).
(70) عبد المطّلب، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، ط1، القاهرة، ص204.
(71) المبرد، كتاب التعازي والمراثي، ص 88.
(72) الغانمي، اللّغة والخطاب الأدبي، ص70.
(73) المبرد، كتاب التعازي والمراثي، ص 117.
(74) نفسه، ص117.
(75) انظر مثلاً The Act of creation: Arther Coestler, 1985, pp.33-42.
(76) المدائني، كتاب التعازي، ص37.
(77) نفسه، ص14.
(78) المبرد، التعازي والمراثي، ص119.
(79) انظر: المبرد، التعازي والمراثي، ص (129- 143).
(80) نفسه، ص (115 – 116).
(81) نفسه، ص116.
(82) نفسه، ص122.
(83) نفسه، ص125.
(84) سورة الملك آية (2).
(85) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج4، ص323.

(86) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص60.
(87) نفسه، ج3، ص60.
(88) لاينز، الّلغة والمعنى والسياق، ص133.
(89) عبد البديع، التركيب الّلغوي في الأدب، ص50.
(90) نفسه، ص50.

المصادر والمراجع

بدوي، عبدالرحمن ، 1945، الموت والعبقرية، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة .

الجرجاني، عبدالقاهر (ت 471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، 1992، ط3، مطبعة المدني، القاهرة.

ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت 608هـ)، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، 1996، ط1، دار صادر، بيروت، المجلّد الرابع.

الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت 448هـ)، غرر البلاغة، حقّقه وقدم له محمد الديباجي، 2002، ط2، دار صادر، بيروت.

الصاحب بن عباد (ت 385هـ)، رسائل الصاحب بن عباد، صححها لها عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف، د.ت، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، الباب العاشر.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 328هـ)، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، 1987، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الثالث.

عبد البديع، لطفي، 1997، التركيب الّلغوي في الأدب، ط1، مكتبة لبنان/بيروت والشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان/ القاهرة.

العبد، محمد، 2005، النص والخطاب والاتّصال، ط1، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.

عبد المطّلب، محمد، 1995، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، مكتبة لبنان /بيروت. والشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان/ القاهرة.

عيد، رجاء، 1993، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية.

عياشي، منذر، 2002، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط1، مركز الإنماء الحضاري، الدار البيضاء.

الغانمي، سعيد، 1993، الّلغة والخطاب الأدبي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت 276هـ)، عيون الأخبار، تحقيق محمد الإسكندراني، 1994، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت 751هـ)، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، د. ت، ط1، مكتبة المتنبي، القاهرة.

لاينز، جون، 1987، الّلغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 286هـ)، التعازي والمراثي، وضع حواشيه خليل المنصور، 1996، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

المدائني، أبو الحسن علي بن محمد (ت 228هـ)، كتاب التعازي، تحقيق ابتسام الصفّار وبدري محمد فهد، 1971، ط1، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

المسدي، عبد السلام بلا تاريخ، الأسلوبية والأسلوب، ط3، الدار العربية للكتاب، تونس.

منصور، محمد منير، 1987، الموت والمغامرة الروحية من الأسطورة إلى علم الروح الحديث، ط1، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، 1990، ط1، دار صادر، بيروت.

النويري، شهاب الدين أحمد عبدالوهاب (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، 2007، ط2، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، المجلّد الخامس.

Arther Coestler, The Act of creation, Longman, London, 1985.

Brown. Gillian and Youl. 1988. George, Discourse Analysis, Cambridge University press, 7th, edition.

Condolences In Arabic Heritage: Syntactic-Semantic Study

*Kholoud Al-Omoush**

ABSTRACT

This paper studies the language of discourse "Condolences" in Arabic Heritage. It is partially based on the achievements of the discourse Analysis School.

"Condolences" is defined as what is said to the relations of a dead person to sympathize and show emotions to them.

The Study has investigated the linguistic features in the letter of condolences. Those features have been highlighted by analyzing relatively a long letter of condolences. This study also concerns itself with as patience is used in soothing the pain and suffering of the kins of the deceased.

Studying the language of condolences clarifies the linguistic patterns and forms used by Arabs to sympathize with each other in an issue of existence that has a great impact on life, which is death.

Finally, the paper may enable us in later stages of research to find the cultural and social implications that are Associated by condolences.

Keywords: Language of Discourse, Condolences, Syntax, Semantics.

---

* The Hashemite University, Zarqa, Jordan. Received on 17/8/2009 and Accepted for Publication on 17/3/2010.